سورة لقمان

دراسة بلاغية

الجزء الثاني

من بداية الآية رقم (٢٠) وحتى نهاية السورة

الدكتور

أحمد إبراهيم محمد علي

مدرس البلاغة والنقد

في كلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنات – ببني سويف

جامعة الأزهر

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

سـورة لقمـان
دراسة بلاغية ـ الجزء الثاني
من بداية الآية رقم (٢٠) وحتى نهاية السورة

الدكتور
أحمد إبراهيم محمد علي
مدرس البلاغة والنقد
في كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات – بني سويف
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، القوي، القادر، العزيز، الرحيم، الكريم، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين.

وبعد،،،

فإن الكتاب الحكيم لا يزال منبعاً ثراً، ومعيناً لا ينضب لعلوم ومعارف كثيرة، ومن أجلّ هذه العلوم، علم البلاغة الذي يبحث في نظم القرآن، وأوجه الإعجاز البلاغي فيه.

وهذا الباب وإن كثر فيه كلام العلماء في القديم والحديث. إلا أنه لا يزال بمثابة الواحة الخصبة المزخورة بالأسرار والدقائق واللطائف التي تحتاج إلى بحث ومراجعة لاستخراجها. والكشف عن أوجه الإعجاز فيها.

ولهذا عنيت هذه الدراسة لسورة لقمان بدءاً من الآية رقم ٢٠، وحتى نهاية السورة – بالمفردات، والتراكيب، والصور.

وكانت عنايتها بالمفردات توضيحاً لمعانيها اللغوية، وكشفاً عن أوضاعها في التراكيب، باعتبارها لبنة في النظم القرآني.

وكانت عنايتها بالتراكيب القرآنية الخصبة تحليلاً لم يغفل الفروق بين أحوالها المختلفة، وبيان كيفية وصلها أو فصلها.

وكانت عنايتها بالصور بحثا فيما تفيض به من معان غزيرة، وما تبثه في النفوس من أحوال مختلفة.

ويشيع في هذا القدر من سورة لقمان، الحديث عن خلق الكون بكل ما فيه من سماوات مرفوعة، وأرض مبسوطة، وتسخير كل ما فيهما، من كواكب وبحار، وجبال وأنهار، ودواب وأشجار للإنسان، واقتصار ملكية ذلك كله عليه سبحانه.

ودعوة الإنسان للتأمل في ذلك كله، كي يصل إلى الإيمان بوحدانية الله سبحانه، وقدرته المطلقة، فكان هناك من اهتدى بذلك، مسلماً وجهه لله سبحانه، وكان من كفر وآثر الحياة في ضلال مبين.

مع هذه المعاني التي أحكم القرآن الكريم سبكها، وأبدع نظمها في هذه الآيات من سورة لقمان، أعيش محاولا تسليط الضوء على ما هداني إليه، من أسرار كلامه المعجز، وذلك بعد مراجعة دقيقة لكلام العلماء، راجيا المولى عز وجل، أن يغفر لي زلتي، وأن يقبلني عنده من التوابين، وأن يفتح لنا من أبوب رحمته، وجوده، وعلمه، إنه سميع قريب.

وكانت السورة قد افتتحت بالإشارة المفيدة تعظيم وتشريف وعلو شأن الآيات، لأنها آيات الكتاب الحكيم، والتى تستلزم حكمته حكمة منزله فى أقواله، وأفعاله، وكماله فى صفاته.

فكانت البداية معربة عن هذا، ومثبتة لله الحكمة والكمال فى الصفات والأفعال، ومنزهة له عن كل نقص بطريق شريف. ينبئ عن فخامة وروعة، من جهة أنه استدلال على وجود الشيء، وصفاته، من خلال الوقوف على آثاره، التى هى أقواله وأفعاله.

فلما كانت الآثار كاملة لا نقص فيها ولا قصور، محكمة لا خلل فيها ولا اضطراب، كانت دالة على كمال وحكمة قائلها وفاعلها.

وهو أسلوب يبث فى النفوس مهابة وروعة، وإجلالاً وتعظيماً لمن دلت على حكمته أقواله وعلى كماله أفعاله، لأن ثبوت ذلك لله -سبحانه- بطريق التفرد، يعني ثبوت ألوهيته، واستحقاقه العبودية الخالصة.

وإذا كانت الآيات بهذه الدرجة من الحكمة. فلا شك أنها تكون هادية وراحمة، بل هى عين الهداية والرحمة لمن تطهرت نفسه، وتطيبت، لتكون أهلا لاستقبال تلك الفيوضات، وهذه الرحمات بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، واليقين بالآخرة.

وهذا الصنف من الخلق يكون باستقباله هداية الآيات ورحمتها، على هدى من ربهم، وإذا كانوا كذلك كانوا هم المفلحون.

فكان فى ذلك إغراء لكل عاقل، بأن ينخرط فى سبيل المحسنين،التى هى سبيل الله،بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.والإيمان باليوم الآخر، وذلك من بداية السورة وحتى نهاية الآية رقم ٥.

ثم فرع عليه التنويه بضلال فئة عزفت وأعرضت عن ذلك، هابطة من هذا الإعراض،إلى الصد عن سبيل الله،والاستهزاء بها، استكباراً وإعراضاً عن الحق مع وضوحه، فكان جزاؤهم من جنس ما سلكوا، وما قدموا استهزاء وسخرية، مع العذاب الأليم.

قال تعالى: "فبشره بعذاب أليم"[١]، وهو بالطبع مغاير لثواب الفريق الأول، فهو صاحب جنات النعيم، وذلك من الآية رقم: ٦ وحتى نهاية الآية رقم: ٩.

ولما كانت حكمة الله سبحانه وتعالى يستدل عليها بإحكامه أقواله وأفعاله، ذكر جانبا من هذه الأفعال، وهى خلق السموات مرفوعة بلا عمد، وإلقاء الرواس فى الأرض، ونشر الدواب فيها، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الزروع والثمار المختلفة، وهى أفعال تامة كاملة.

فدل بإحكام أفعاله على حكمته، وكماله المستلزم وحدانيته، وتفرده بالألوهية.

ولذلك يقول: " هَذَا خَلْقُ اللهِ "[٢] مشيراً إلى غاية الكمال، ونهاية الحكمة فى الأفعال، نافيا أن يكون لغيره نصيب منها فى أبلغ أسلوب بقوله: " فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ "[٣].

(١) لقمان: ٧.
(٢) لقمان: ١١.
(٣) لقمان: ١١.

يقول الإمام البقاعي: عند مقصود سورة لقمان "مقصودها إثبات الحكمة للكتاب اللازم منه حكمة منزله - سبحانه- في أقواله وأفعاله"[١]. وذلك من الآية رقم ١٠ وحتى نهاية الآية رقم ١١.

ثم عاد ليخبر عن بعض من آتاهم الله الحكمة فانتفعوا بها، في حياتهم، فوضعوا الأشياء في مواضعها، واعترفوا بوحدانية الله، وأقروا بربوبيته، وتدرجوا من الحض على عدم الإشراك به -سبحانه- إلى الكمال في العبودية لله -سبحانه وتعالى- وذلك من الآية رقم ١٢ وحتى نهاية الآية رقم ١٩.

وكان الجزء الأول من هذه الدراسة قد نشرته حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق - بعددها الثامن والعشرين الصادر في العام ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م متضمنا دراسة السورة من بدايتها وحتى نهاية الآية رقم ١٩.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة.

أولا: المقدمة: وقد ذكرت فيها بإيجاز ما اشتمل عليه الجزء الأول من مقاصد تضمنتها السورة من أولها وحتى نهاية الآية رقم ١٩ ليكون القارئ على صلة بما جاء في البحث الأول، وليبني عليه ما سيأتي في الجزء الثاني.

ثانيا: المبحث الأول: موقف الناس وحالهم من الإيمان بالله واتباع ما أنزل على رسوله.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور جـ٦، ص٣.

١-بيان حال من يجادل في الله بغير علم ولا هدى مع وضوح الدلائل على تفرده بالألوهية.

٢-بيان حال من أسلم وجهه لله وهو محسن.

٣-بيان عاقبة الكافرين ونهي الرسول ﷺ عن الحزن لكفر من كفر مع إقرارهم لله بالخلق والألوهية.

ثالثا: المبحث الثاني: من مظاهر استحقاقه - سبحانه- الألوهية.

١-اقتصار ملكية السموات والأرض وما فيهما عليه سبحانه.

٢-عدم تناهي علمه وحكمته.

٣-قدرته المطلقة على الخلق والبعث.

٤-إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وتسخيره للأجرام السماوية بحكمة بالغة.

رابعا: المبحث الثالث: من مظاهر كرمه ورحمته.

خامسا: المبحث الرابع: الدعوة إلى تقوى الله سبحانه، والاستعداد ليوم الحساب.

سادسا: الخاتمة.

بنها في
الثاني عشر من شهر شعبان سنة ١٤٢٩هـ
الموافق الثلاثاء ١٢ من أغسطس ٢٠٠٨
د/ أحمد إبراهيم محمد علي

المبحث الأول

بيان موقف الناس وحالهم من الإيمان بالله -سبحانه- واتباع ما أنزل على رسوله ﷺ.

أولا: بيان حال من يجادل في الله بغير علم، ولا هدى، مع وضوح الدلائل على تفرده بالألوهية.

قوله: تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾[1].

وهو رجوع إلى سنن ما سلف قبل قصة لقمان، من خطاب المشركين، وتوبيخ لهم على إصرارهم على ما هم عليه. مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد"[2].

يقول الإمام البقاعى: "وكان قد أخبر سبحانه وتعالى فى أول السورة أن الآيات المسموعة هدى لقوم، وضلال لآخرين. وكان من الغرائب، أن شيئاً واحداً يؤثر شيئين متضادين. وأتبع ذلك ما دل على أنه من بالغ الحكمة، بوجوه مرضية، مشرقة. مضيئة، لكنها بمسالك دقيقة، وإشارات خفية، إلى أن ختم بالنهى عن التكبر، ورفع الصوت فوق الحاجة، إشارة إلى أن فاعل مالا حاجة إليه غير حكيم، وكان التكبر على الناس والتعالى عليهم من آثار الفضل فى النعمة، وكانت العادة جارية بأن الملك يخضع له تارة لمجرد عظمته، وتارة خوفاً من سطوته، وتارة رجاء لنعمته، أبرز سبحانه وتعالى غيب ما وصف به الآيات

(١) لقمان : ٢٠.
(٢) روح المعانى مـ١١ جـ٢١، ص٩١.

المسموعة من تأثير الضدين فى حالة واحدة، فى شاهد الآيات المرئية، على وجه يدل عل استحقاقه، لما أمر به لقمان عليه السلام من العبادة والتذلل، وأن إليه المرجع، وهو عالم بكل شيء قادر على كل شيء، وأن ما ترى خلقه، مذكراً بأن النعمة إنما هى منه، فلا ينبغى لأحد أن يفخر بما آتاه غيره، ولو وكل فيه إلى نفسه، لم يقدر على شيء منه، محذراً من سلبها عن المتكبر، وإعطائها للذليل المحتقر"[1].

والآية -إلى جانب ذلك - تنبه على الصنعة الدالة على الصانع، وذلك أن تسخير هذه الأمور العظام، كالشمس والقمر، والنجوم، والسحاب، والرياح. والحيوانات والنبات إنما هو بمسخر ومالك[2].

والآية قد افتتحت بالاستفهام، ومعناه طلب الفهم. لكنه لم يأت على حقيقته وإنما خرج إلى معنى مجازى. هو: التقرير والامتنان[3]، أى: التقرير بتسخير الله لكل ما فى السموات والأرض، مما لا طاقة للإنسان على تسخيره، والامتنان منه – سبحانه – على عباده بتلك النعمة.

ولا يخفى ما فى قوله: "**ألم تروا**" من حض، وتحريض للإنسان على التأمل فى كل ما يحيط به، من أشجار، وبحار، وأنهار، وجبال ودواب، وكيف أن الله – سبحانه – قد سخرها للإنسان، فأصبح ينتفع بها، وبكل ما فيها من خيرات، وعلى

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور جـ٦،ص ٢٣، ٢٤.
(٢) المحرر الوجيز لابن عطية جـ٤، ص٣٥٢.
(٣) راجع التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم د/ عبدالعظيم المطعنى جـ٣، ص٢٥٣.

التأمل فى السماء بما فيها من نجوم هادية، وقمر منير، وشمس تمد بالدفء، والضوء، وهى أيضاً مسخرة له بأمر الله. وتسخيره لها.

وهذا يعنى أحد أمرين: إما أن يكون المخاطب – وهو غير معين – لم يكن قد وقف على ما عدى إليه فعل الرؤية. وهو تسخير الله ما فى السموات وما فى الأرض.

أو يكن قد أدرك ذلك، إلا أن حاله تدل على إنكاره. وتجاهله لهذا الأمر، وعلى المعنى الثانى يكون المقصود من الاستفهام "التقرير"، ومثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾[1]،وقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[2]. وقوله:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ ٱلْفِيلِ ﴾[3]، واكثر مجئ الاستفهام للتقرير فى الأفعال المنفية.

وذلك لقصد تحقيق صدق المقر، بعد إقراره، لأن مقرر أو رد له الفعل الذى يطلب منه الإقرار به، مورد المنفى، كأنه يقول له: أفسح لى المجال للإنكار إن شئت أن تقول "لم أر". فإذا أقر بالفعل بعد ذلك لم يبق له عذر بادعاء أنه فكر فيما أقر به"[4].

وإن لم يكن المخاطب قد وقف على ما عدى إليه فعل الرؤية. فإن المقصود من الاستفهام: الإنكار، أى الإنكار على المخاطب غفلته عن النظر فى ذلك، وتكون الرؤية بصريه.

---

(١) الضحى: ٦.
(٢) الشرح: ١.
(٣) الفيل: ١.
(٤) راجع التحرير والتنوير جـ٢، ص٤٧٧.

غير أن الاستفهام – هنا– يمكن حمله على المعنيين. أى: تقرير للمخاطبين بتسخير الله ما فى السموات، وما فى الأرض، وإسباغ النعم الظاهرة، والباطنة عليهم، ليصل من خلال ذلك إلى تقريعهم، ولومهم، على عدم عملهم بما أقروا به.

وكأنه يريد أن يقول لهم: إذا كنتم تقرون بأن الله هو الذى سخر ما فى السموات، وما فى الأرض، وأسبغ عليكم كل هذه النعم فلماذا تشركون به؟ ولماذا تشترون لهو الحديث لتضلوا عن سبيل الله؟ ولماذا تجادلون فى الله بغير علم؟

"ويمكن أن يحمل على الإنكار، لعدم رؤيتهم لتسخير الله ما فى السموات والأرض، إلا انه يكون بتنزيلهم منزلة من لم يروا آثار ذلك التسخير لعدم انتفاعهم بها فى إثبات الوحدانية، ورؤية التسخير تعنى: رؤية آثاره ودلائله"(١).

كما أن الأسلوب يوحى بالتعجيب من حال المخاطبين. فضلاً عن الحض على علم ما تعدى إليه فعل الرؤية، لأن الأمر المقرر به، كشرح صدره ﷺ، وإيواء الله له لما كان يتيماً، وتسخير الله ما فى السموات والأرض، أو الأمر الذى ينكر على المخاطب جهله، من شأنه أن تتوافر الدواعى على علمه، وذلك مما يحرص المخاطب على الوقوف عليه والإحاطة به.

قوله: "**سخر**" السِّخرة: ما تسخَّرت من دابة أو خادم، بلا أجر ولا ثمن، ويقال: سخَرْته بمعنى سخَّرته أى: قهرته وذللته. وكل مقهور مدبَّر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك مسخر. قال الزجاج: تسخير ما فى السموات: تسخير الشمس،

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٧٤.

والقمر، والنجوم، والسحاب للآدميين، وهو الانتفاع بهـا[١]، لأن الله خلقها بأحوال معينة من بعد، أو قـرب، أو حركـة بحيـث تناسب انتفاع البشر بضيائها، وأمطارهـا. وتسـخير مـا فـى الأرض: تسخير بحارها وأنهارها ودوابها وجميع منافعهـا بمـا يخدم الإنسان.

ثم تأمل قوله: "لكم" أى أنه سخر ما فى السموات وما فى الأرض، وأسبغ عليكم تلك النعم، من أجلكم أنـتم، فضـلا عمـا يوحي به لفظ التسخير، من انتفاعهم بكل هـذه الأشـياء، دون مقابل منهم، وهذا فيه دليل واضح على رحمـة الله الواسـعة، وإحسانه على عباده.

وقوله: "**وأسبغ عليكم نعمه**" فيه استعارة تصريحية تبعيه، لأن الإسباغ: ستر الثوب الجسد، وقـد اسـتعير – هنـا – الكثـرة والإحاطة[٢].

ويقال: شئ سابغ: أى كامل واف. وسبغ الشـئ يسـبغ سبوغاً: طال إلى الأرض واتسع، وأسبغه هو: أى: وسعة[٣].

واستعارة الإسباغ هنا بما فيه من همزة الجعل. يشير إلى أن الله – سبحانه – قد أعطى خلقه بلا حساب. ثم تعديته بحرف الجر "على" المفيد للاستعلاء، يوحى بأن هذا الإسباغ. لـم يكـن بإذن المسبغ عليهم، فالشمس تشرق، وتغرب دون إذنهم. والليل يخلف النهار، والنهار يخلفه الليل دون إذنهـم ممـا يعنـى أن

(١) لسان العرب مادة سخر.
(٢) التفسير البلاغى للاستفهام جـ٣، ص٢٥٣
(٣) لسان الغرب مادة سبغ.

الإنسان لا طاقة له ولا دخل فى ذلك، كان التعبير بحرف الجر على مناسبا لذلك.

والواو فى قوله: "ومن الناس من يجادل" واو الحال[1]، والمعنى: قد رأيتم وأقررتم أن الله سخر لكم ما فى السموات، وما فى الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، والحال أن من الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

"ومن الناس" خبر مقدم، وأصل الكلام: من يجادل فى الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير من الناس، وقدم للتنبيه على عجيب ما سيذكر، والتشويق إلى معرفة ما يتم الإخبار به عنه، كما لا يخفى ما يوحى به من تعجيب من حال ذلك الفريق، الذى يجادل فى واحدانية الله ووجوده بغير علم، وبخاصة أن جداله، إنما كان بعد الإقرار بتسخير الله ما فى السموات، وما فى الأرض، وإسباغ النعم، ظاهرها وباطنها، فلما جادلوا فيه بعد وضوح الدلائل، والبراهين، على تفرده بالألوهية، فإن ذلك يكون مصدر دهشة، وتعجب، وتقدم الحديث عنها عند قوله تعالى: "ومن الناس من يشترى لهو الحديث".

وقوله : "**يجادل**" استعارة لأن الجدل – فى الأصل – هو إبرام الحبل وإحكامه، والمجادل، يحاول إحكام شبهته أو حجته، لترق، وتروج عند سامعيها. وفى استعمال الجدال ما يوحى بشدة تمسكهم بما هم عليه من باطل، وبعد عما تقتضيه الحكمة، كما أن تأخير المبتدأ في قوله: "من يجادل" فيه إشارة إلى تقبيح

(١) ذكر ذلك الألوسي في روح المعاني ج:٢١، ص:٩٣.

الجدال – هنا – وأنه من الأمور المذمومة. لأنه لا يتعلق بإظهار الحق.

وقد عد الذهبى هذا النوع، من الكبائر وقال: إن كان الجدال للوقوف على الحق وتقريره كان محموداً، وإن كان الجدال فى مدافعة الحق، أو كان بغير علم كان مذموماً، وعلى هذا التفصيل تنزل النصوص الواردة فى إباحته وذمه"[١].

****

قوله تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٢].

"وهى امتداد فى الحديث عن الذين يجادلون فى الله. لأن المجادل فى الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، لا شك فى أنه تابع لهواه، مقلد لمثله قطعاً، وكان حال المجادلين هذا – لظهور أدلة الوحدانية– عجبا، عجب منهم تعجيباً آخر، بإقامتهم على الضلال مع إيضاح الأدلة[٣].

فقوله "وإذا قيل لهم" إلخ، عطف على صلة "من" فى قوله: "ومن الناس من يجادل"[٤]، أى من حالهم أنهم يجادلون فى الله بغير علم– أى فى صفاته وتوحيده – حالة كونهم، لا على

(١) كتاب الكبائر للذهبى ص ٢٢١ مؤسسة الرعاية للتوزيع والنشر لبنان.ط٢.
(٢) لقمان: ٢١.
(٣) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور جـ٦، ص ٢٥، ٢٦.
(٤) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٧٦.

لهم، ولا هدى، ويضربون عن اتباع ما أنزل الله، مؤثرين إتباع ما وجدوا عليه آباءهم.

و"إذا" ظرف زمان للمستقبل، وهى شرطيه فى أكثر استعمالاتها، والزمان المستقبل لابد أن يجئ، ويتحقق معه ما يقع فيه من أحداث[1].

ولذلك فهى تختص بالأمر المتيقن منه، أو المظنون فيه، ولكن الأول هو الأغلب"[2].

وهذا فيه إشارة إلى تحقق الجواب، الذى يقابلون به من يدعوهم إلى منهج الله، كما أنه يشير إلى أنهم قد بلغوا بلاغاً صحيحاً لا قصور فيه، وهذا يعنى أنه لما "قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله" بين لهم وجه الأمر بالإتباع، وهو أن المتبوع: آيات الكتاب الحكيم، وأنها نزلت من عند الله، الذى "سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة".

وبناء الفعل "قيل" لما لم يسم فاعله، للإشارة إلى أن المقصود هو: "تحقيق الغرض بالفعل دون التوقف على الفاعل، لأن المعول عليه هو دعوتهم إلى ما أنزل الله"[3].

كما يشير إلى أن اتباع الحق لا ينبغى أن يتوقف على نسب الداعى أو شهرته، أو ذيوع أمره أو صفته، بل لأجل الحق، ولذلك عاب القرآن الكريم عليهم رفضهم إتباع ما جاء به الرسول - ﷺ - مع أنه الحق - ومع علمهم بأنه كذلك - لمجرد أنه نزل على الرسول - ﷺ - وحكى عنهم قولهم:

(١) النحو الوافى جـ٣، ص٤٤٠.
(٢) النحو الوافى جـ٣، ص٤٣١.
(٣) التفسير البلاغى للاستفهام جـ٣، ص٢٥٥.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[١].

أى بما تتطلبه العظمة من امتلاك القصور، والضياع، والذهب والفضة، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾[٢].

والاتباع: أن يسير الرجل وأنت تسير وراءه[٣]، وعلى هذا يكون فى قوله: "اتبعوا" استعارة تصريحية تبعية، شبه فيها الإيمان بما أنزل الله، والاهتداء به فى السراء والضراء. بالسير الحسى خلف خبراء الطريق، فى أرض موحشة، كثيرة المهالك. لا يدرى أولها من آخرها، ولا شرقها من غربها، ولا شمالها من جنوبها، أو هو تمثيل لهذه المعنى كلها"[٤].

واستعارة "الاتباع" "للإيمان" والتصديق بما أنزل الله إنما يصوره فى صورة الهادى الخبير بالطريق، كما يشير إلى ما هم عليه من ضلال، وبعد عن الطريق الموصلة إلى الغاية.

و"ما أنزل الله" كناية عن آيات الكتاب الحكيم، التى سبق الحديث عنها فى صدر السورة – والتى وصفت بأنها "هدى ورحمة" وإنما عدل عنها إلى الموصول وصلته، لما فى الصلة من ذكر الإنزال مسندا إلى اسم الجلالة، ففيه إشارة إلى علة

(١) الزخرف: ٣١.
(٢) الإسراء : ٩٠: ٩١.
(٣) اللسان مادة تبع.
(٤) التفسير البلاغى للاستفهام جـ٣، ص٢٥٥.

الإتباع للآيات، كما أنها تضفى على الآيات مهابة وروعة، أضف إلى ذلك ما تبثه الصلة- فى نفوسهم من تهويل الإعراض عنها.

و"بل" للإضراب، والانتقال من الدعوة إلى ما أنزل الله، إلى التمسك بما وجدوا عليه آباءهم، وقوله تعالى "ما وجدنا عليه آباءنا" كناية عن عبادة الأصنام، وعدول القرآن إلى الموصول وصلته - هنا- فيه تسجيل عليهم بالضلال، والحمق، لأن ما وجدوا عليه آباءهم هو عبادة تلك الأصنام، التى ثبت أنها لم تخلق شيئاً، وبالتالى فهى ليست جديرة بالعبودية، وأما الحمق: فهو من جهة أنهم لم يعملوا عقولهم فيما يتبعونه، ويسيرون خلفه، وهل يقودهم إلى النجاة، أم الهلاك، فكانوا كالأنعام بل أضل لأن لهم عقولاً، وهى لا عقل لها.

وتقديم الجار والمجرور فى قوله "عليه آباءنا" وأصله: ما وجدنا آباءنا عليه" يشير إلى تعصبهم للباطل، وللموروث عن آباءهم، كأنهم قالوا: نتبعه، ولا نتبع شيئا سواه.

ثم تأمل فيما يوحى به حرف على[1]، المفيد للاستعلاء. وكيف يصور مدى تمكن القوم مما كانوا عليه من ضلال، وأنهم صاروا فوقه، وكأنهم لشدة ضلالهم صاروا كأنهم هم الذين يوجهون الضلال.

ففيه استعارة تمثيلية تبعية، حيث شبهت حال تمسك آبائهم بما كانوا عليه من ضلال بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق، وعلى الباطل.

(١) سبقت الإشارة إلى ما فيه من استعارة ص.

وأنت لم تكن لتقف على هذه اللطيفة لو وضعت مكان " على" "فى" فقلت: بل نتبع ما جدنا فيه آباءنا.

والهمزة في قوله: "أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب اسعير" للإكار والتوبيخ.

أى: "أيتبعون آباءهم فى كل حال، ولو كان وليهم الشيطان، يزين لهم كفرهم،وضلالهم، ليكونوا وقوداً لجهنم"[١].

كما يفهم من كلام الزمخشري عند حديثه عن قوله تعالى فى سورة البقرة.﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[٢].

أن الاستفهام – هنا- يفيد إلى جانب التوبيخ والإنكار – التعجب، فهو وزان الاستفهام هنا.

قال: "الواو للحال، والهمزة بمعنى الرد والتعجيب"[٣].

والواو الواقعة بعد الهمزة، فى قوله "أو لو" قيل: إنها عاطفة على محذوف، وقيل: إنها حالية، وعلى كل فلابد من تقدير محذوف معناه: أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم. وجواب "لو" محذوف تقديره: فيتبعون. أى: ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير فيتبعون"[٤].

---

(١) التفسير البلاغى للاستفهام جـ٣، ص ٢٥٤,٠

(٢) البقرة : ١٧٠.

(٣) الكشاف: جـ:١، ص:٢١١.

(٤) إعراب القرآن الكريم وبيانه، جـ:٦، ص:٩٨.

والأسلوب هنا فيه إنكار لحالهم، حيث إنهم تركوا ما أنزل الله من آيات فيها هدى ورحمة، واتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم من الضلال، وتوبيخ لهم على ذلك، وتعجيب من حالهم فى ترك ما يقودهم إلى النجاة، واتباع ما يقودهم إلى عذاب السعير.

وإضافة العذاب إلى السعير، فيه تفظيع وتهويل من سوء مصيرهم، لأنه يقال للنار: استعرت، وتسعرت: إذا استوقدت وسعرها: أوقدها وهيجها، ونار سعير أى: مسعورة[1].

****

ثانيا: بيان حال من أسلم وجهه لله وهو محسن.

قوله تعالى:﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[2].

لما بين حال من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، رافضاً إتباع ما أنزل الله من الآيات، ومؤثراً الانقياد والإتباع لما وجد عليه الآباء من الضلال، فكان حاله كحال من يتبع السراب، ويسير فى الظلام، ويتعلق بأوهى ما يمكن أن يتعلق به ويستمسك، شرع فى بيان حال الفريق الآخر، وهو الذى أسلم وجهه لله، فاستسلم وانقاد وأخلص له.

قوله "**يسلم**" يقال: أسلم إليه الشئ: دفعه، والإسلام: الانقياد، ويقال: فلان مسلم، وفيه قولان أحدهما: هو المستسلم لأمر الله، والثانى هو: المخلص لله العبادة، من قولهم: سلّم الشئ لفلان أى خلصه، وسلم له الشئ أى: خلص له[3].

---

(١) راجع لسان العرب مادة: " س ع ر".
(٢) لقمان:٢٢.
(٣) لسان العرب مادة "س ل م".

و"محسن" الحسنة: ضد السيئة، والمحاسن فى الأعمال: ضد المساوئ، والمحسن هو: الذى ينصر الضعيف، ويعين المظلوم، ويعود المريض، والإحسان: ضد الإساءة، ورجل، محسن، ومحسان.

وفسر النبى -ﷺ- الإحسان حين سأله جبريل – صلوات الله وسلامة عليه – فقال: هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[١]، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[٢].

وأراد بالإحسان:الإخلاص، وهو شرط فى صحة الإيمان والإسلام معاً، وذلك أن من تلفظ بالكلمة وجاء بالعمل من غير إخلاص لم يكن محسناً، وقيل: أراد بالإحسان: الإشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة، فإن من راقب الله أحسن عمله.

"واستمسك" يقال: مسك بالشئ، وأمسك به، وتمسك، وتماسك، ومسك، واستمسك كله: احتبس، وأمسكت بالشئ وتمسكت به واستمسكت به، كله بمعنى: اعتصمت[٣].

و"العروة": عروة الدلو والكوز ونحوه: مقبضه ، وعرى الشيء: اتخذ له عروة، وهى: ما يجعل كالحلقة فى طرف شيء ليقبض على الشيء منه، وقد تكون العروة فى حبل، بأن يشد

(١) لسان العرب مادة: "ح س ن" والحديث بصحيح مسلم ج١ـ باب الإيمان والإسلام، والإحسان.
(٢) النحل: ٩٠.
(٣) اللسان مادة م س ك

طرفه إلى بعضه، ويعقد فيصير مثل الحلقة فيه[1]، "والوثقى": المحكمة الشد، من الوثقى بمعنى: ضم الشئ إلى الشئ.

والآية تبين حال من استلم وانقاد وخضع لله – سبحانه – بأنه أسلم ذاته وبالغ فى ذلك، لأن إسلام الوجه: يعنى تسليم الذات لأمر الله – سبحانه- ، "وعبر عن الذات بالوجه لأنه البعض الأشرف"[2].

قال الشهاب: "إن الوجه مجاز عن نفس الشيء وذاته كما فى قوله تعالى ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾[3]، أو عن جملة الشخص تعبيراً عن الكل بأشرف الأجزاء"، وعلى هذا يكون "الوجه" مستعملاً فى غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة، فهو من باب المجاز المرسل، والعلاقة "الجزئية".

وليس المراد تسليم الذات على الحقيقة، وإنما إسلام الوجه – هنا – كناية عن تسليم المرء أموره جميعها لله رب العالمين.

وقد أشار الشهاب الخفاجى إلى تلك الكناية بقوله: "الإسلام والتسليم بمعنى: التفويض، وأن الوجه بمعنى الذات، وتسلم ذاته، كناية عن تسليم أموره جميعها لله"[4].

وهى أبلغ من التصريح. لأنه بذلك يثبت خضوعاً وانقياداً واستسلاماً من المؤمنين، مقروناً بالدليل والبرهان. والسبب فى ذلك "أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه، أن إثبات الصفة

---

(١) راجع: المفردات فى غريب القرآن، واللسان مادة ع ر و.
(٢) التحرير والتنوير جـ١، ص٦٧٤.
(٣) الرحمن : ٢٧.
(٤) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى جـ٨، ص ٤١٢.

بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد فى وجودها، آكد وأبلغ فى الدعوى، من أن تجئ إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلا، وذلك أنك لا تدعى شاهد الصفة ودليلها، إلا والأمر ظاهر معروف. وبحيث لا يشك فيه، ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط"[١].

ولهذا كان للمعنى إذا أثبت من خلال الكناية أنس، وقبول لدى النفس، لأنها - فوق ما تفيده الألفاظ من جمال- "تكسب المعانى ديباجة وكمالاً، وتحرك النفوس إلى عملها، وتدعو القلوب إلى فهمها، فإن أوقعتها فى المدح كانت أرفع وأحسن، وفى نفس الممدوح أوقع وأمكن، وإن صدرتها للذم كانت آلم وأوجع، وعلى ذكر فضائح المذموم أسرع وأخضع، وإن أدخلتها من أجل الحجاج. كان البرهان بها أوضح وأنور، والسلطان بها أقدر وأقهر، والإفحام بها أشهر، والتسلط أعظم وأبهر،وإن وقعت فى الافتخار، كان ضياؤه أسطع، ومناره أعلى وأرفع، وإن كانت موجهة للاعتذار، فهى إلى سلِّ سخائم القلوب أعجل وأقرب، وبِوَحْر[٢]، الصدور وفل غرب غضبها أذهب، وإن صدرت للاتعاظ كانت فى المبالغة فى النصيحة أنجع، ولمرض القلوب أشفى وأنقع، وإن أردت بها، جانب الإعتاب والرضا، كانت بطيب الصحبة، ولين العريكة أظفر، وعلى الوفاء بلوازم الألفة أوفر، فهى كما ترى واقعة من البلاغة فى أعلى المراتب، وحائزة من الفصاحة أعظم المناقب"[٣].

---

(١) دلائل الإعجاز ص٧٢.
(٢) الوحر: الغيظ والحقد وبلابل الصدر ووساوسه.
(٣) كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام يحى العلوى ط. بيروت ص٢٠٣.

وقوله: "وهو محسن" جملة حالية لإظهار أنه لا يغنى إسلام القلب وحده، ولا العمل بدون إخلاص، بل لا نجاة إلا بهما، ورحمة الله فوق ذلك، إذ لا يخلو امرؤ عن تقصير"[١].

حالة المؤمن الذى استسلم، وانقاد، وخضع لله رب العالمين، وتمسك بما أنزل من آيات الكتاب الحكيم، بما فيها من هدى ورحمة للمحسنين، لأنه رأى فيها نجاته، وأنها تصل به إلى الأمان، وتعصمه من الزيغ والضلال، وتمدد بالهدوء والسكينة، وتغمره بفيض من الأمن والسعادة،حالة المؤمن هذه – وهى حالة عقلية تعلم بالنظر والاستدلال صورتها الآية فى صورة حسية مشاهدة – يتخيلها القارئ، والسامع كأنه ينظر إليها – هى صورة من أمسك بعروة وثقى، من حبل وهو راكب على صعب، أو يترقى فى جبل شاهق، أو يتدلى منه، والجامع بينهما: شدة التمسك، والتعلق فى كل.

وقد أشار الزمخشرى إلى التشبيه ونوعه – هنا– فقال: "وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر، أو الاستدلال بالمشاهد المحسوس، حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينيه، فيحكم اعتقاده والتيقن به"[٢].

حيث "مثلت حال المتوكل، بحال من أراد أن يتدلى من شاهق، فاحتاط لنفسه، بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين، مأمون انقطاعه"[٣].

(١) التحرير والتنوير جـ١، ص٦٧٥.
(٢) الكشاف جـ١، ص٢٩٩.
(٣) الكشاف جـ٣، ص٤٨٤.

الصورة هنا توحى بأحوال نفسية، تموج وتضطرب داخل هذا الذى تعلق بعروة حبل، وهو يتدلى من شاهق، كالخوف، والرجاء، وشدة الحرص، فهو يخاف من السقوط، ويرجو النجاة، ويحرص على التمسك بتلك العروة، ويحافظ عليها متينة قوية، لأن فى إهمالها هلاكه، وفى المحافظة عليها نجاته، هذه الأحوال التى تراها، وتشعر بها فى صوره المشبه به، إنما تصف المشبه، وتحدده تحديداً دقيقاً، يكشف أحواله، وأنت ترى ذلك واضحاً جليا، فهذا المتعلق بالحبل فى الهواء، بكل ما يموج بداخله من خواطر، يقابله فى صورة المشبه، ذلك العبد المؤمن، بكل ما يمتلئ به قلبه من خوف ورجاء، فهو يخاف عقاب الله وغضبه، يخاف الضياع فى ضلال لا نهاية له، ويرجو رحمة الله الواسعة، لذا فهو يتمسك بآيات الكتاب الحكيم، التى يقابلها فى المشبه به، ذلك الحبل المتين، ثم إن فِعْل المتدلى، وهو شدة التمسك بذلك الحبل، يقابل فى صورة المشبه غاية التزام المؤمن بكل ما أمر الله به ونهى، إذ لا حبل على الحقيقة هناك يستمسك به، ولكنها آيات حكيمة، بما تضمنته من تعاليم وأحكام وأوامر، ونواه، فتمسكه بها يعنى التزامه بكل ما جاء فيها.

هذه النقلة بالمعانى من عالم المعقولات إلى عالم المحسوسات، لها تأثيرها الذى لا يخفى على النفوس، إذ أن أنسها "موقوف على أن تخرجها من خفى إلى جلى، وتأتيها بصريح بعد مكنى، وأن تردها فى الشئ تعلمها إياه إلى شئ آخر هى بشأنه أعلم، وثقتها به فى المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار

والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: "ليس الخبر كالمعاينة"، و "لا الظن كاليقين"(١).

ثم تأمل فى قوله: "استمسك" وكيف يحث – بما فيه من تأكيد لزيادة السين والتاء – على المزاولة والاجتهاد فى التمسك بالعروة بكل قوته.

ويشير شارح الشافية إلى هذا المعنى الذى تشير إليه صيغة "استفعل" وهو يفرق بين "قولك أخرجت الوتد واستخرجته، فالأول لا دليل فيه على أنك أخرجته بمرة واحدة، أو مع اجتهاد، بخلاف "استخرج" فإنه يكون بمزاولة إخراجه، والاجتهاد فى تحريكه، كأنه طلب منه أن يخرج(٢).

"ولما كان الكل صائرين إليه، رافدين عليه: من استمسك بالأوثق، ومن استمسك بالأوهى، ومن لم يتمسك بشئ، إلا أن الأول صائر مع السلامة، وغيره مع العطب، قال مظهراً تعظيماً للأمر، ولئلا يقيد بحيثية، عاطفاً على ما تقديره: فيصير إلى الله سالماً، فإلى الله عاقبته لا محالة،: "وإلى الله" أى الملك الأعظم وحده تصير "عاقبة الأمور" أى: كما أنه كانت منه بادئتها، وإنما خص العاقبة لأنها مقرونة بالبادئة"(٣).

وأنت ترى أن قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ قد اجتمع فيه القصر لتقديم الجار والمجرور – بما يوحى به ذلك

(١) دلائل الإعجاز، ص١٢١.
(٢) شرح الشافية جـ١، ص١١٠.
(٣) نظم الدر جـ٦، ص٢٦، ٢٧.

التقديم، من طمأنه لهذا الذى استمسك بالعروة الوثقى، والتعريف فى "الأمور" بما يفيده من الاستغراق والشمول، فكأن جزاء كل شئ إنما هو موكول إليه سبحانه، ليومئ، إلى "وعدهم، بلقاء الكرامة عند الله فى آخر أمرهم وهو الحياة الآخرة"(١).

ثالثا: بيان عاقبة الكافرين، ونهي الرسول ﷺ عن الحزن بسبب كفرهم بالله، مع إقرارهم له بالخلق:

قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾(٢).

يقول الطاهر فى بيان وجه الربط بين هذه الآية وما قبلها.

"لما خلا ذم الذين كفروا عن الوعيد، وانتقل منه إلى مدح المسلمين ووعدهم، عطف عنان الكلام إلى تسلية الرسول -ﷺ- بتهوين كفرهم عليه تسلية له، وتعريضاً بقلة العبء بهم. لأن مرجعهم إلى الله، فيريهم الجزاء المناسب لكفرهم، فهو تعريض لهم بالوعيد"(٣).

و "كفر" الكفر: نقيض الإيمان، وأصل الكفر تغطية الشئ تغطية تستهلكه، وإنما سمى الكافر كافراً، لأن الكفر يغطى قلبه كله، والكفر جحود النعمة وهو ضد الشكر، والكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، بأن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق، من لقى ربه بشئ من ذلك لم

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٧٧.
(٢) لقمان: ٢٣.
(٣) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٧٧.

يغفر له، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فأما كفر الإنكار: فهو أن يكفر بقلبه ولسانه، ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد.وأما كفر الجحود، فأن يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه، فهو كافر جاحد ككفر إبليس، وكفر أمية بن أبى الصلت.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾[1] يعنى كفر الجحود، وأما كفر المعاندة، فهو: أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه، ولا يدين به حسداً، وبغيا، ككفر أبى جهل وأضرا به. وأما كفر النفاق، فأن يقر بلسانه، ويكفر بقلبه[2].

و"يحزنك" الحزن والحزن؛ نقيض الفرح، وحزنه الأمر يحزنه حزناً وأحزنه فهو محزون. قال سيبويه: أحزنه: جعله حزيناً، وحزنه: جعل فيه حزناً، كأفتنه: جعله فأتناً، وفتنه: جعل فيه فتنه"[3].

واللغة العالية: حزنه بحزنه من باب فعل يفعل. و"ذات الصدور" هى الأشياء الموجودة فى الصدر، وهى الأسرار، والضمائر، وهى ذات الصدور، لأنها حالة فيها مصاحبة لها، وصاحب الشئ ذود، وصاحبته: ذاته[4].

والآية فيها نهى للرسول-ﷺ- عن الحزن بسبب كفر من كفر، لأن من أنكر وجود الله، ورفض الاعتراف بوجوده مع وضوح الدلائل والبراهين، أو جحده كبراً، وعلواً، وغروراً، أو

(١) البقرة : ٨٩.
(٢) اللسان مادة كفر
(٣) اللسان:مادة حزن
(٤) التفسير الكبير جـ٩، ص ٤١.

كَفَرَ معانداً، كل هؤلاء، لا ينبغى أن يحزنك، كفرهم، لأنهم لن يضروا بذلك إلا أنفسهم، وإنما وبال ذلك عائد إليهم.

"ووجه الحاجة إلى نهى رسول الله عن الحزن هى: أن نفس الرسول - ﷺ- وإن بلغت مرتقى الكمال، لا تعدو أن تعتريها فى بعض أوقات الشدة، أحوال النفس البشرية، من تأثير مظاهر الأسباب، وتوقع حصول المسببات العادية عندها"[١].

"فمن حقه أن يحزن لنفاق من نافق، وارتداد من ارتد"[٢] وكفر من كفر.

وفى إسناد الحزن إلى الكفر "مجاز عقلى" لأنه من إسناد الفعل إلى سببه، إذ الكفر سبب الحزن المنهى عنه، وهو من المجاز الذى لا حقيقة له، لأنك لو ذهبت تبحث عن فاعل الحزن الحقيقى- فى العرف - لأعياك ذلك، يقول عبد القاهر فى بيان ذلك: "واعلم أنه ليس بواجب فى هذا أن يكون للفعل فاعل فى التقدير، إذا أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة، مثل أنك تقول فى: ربحت تجارتهم، "ربحوا فى تجارتهم، وفى" يحمى نساءنا ضرب"[٣] و"تحمى نساءنا بضرب" فإن ذلك لا يتأتى فى كل شئ. ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل فى قولك: "أقدمنى بلدك حق لى على إنسان" فاعلاً، سوى الحق، وكذلك لا تستطيع فى قوله:

---

(١) التحرير والتنوير جـ٤، ص ١٧٣.
(٢) الكشاف جـ١، ص٤٣٤.
(٣) هو من بيت للفرزدق يقول فيه:
يحمى إذا اخترط السيوف نساءنا : ضرب تطير له السواعد أرعل.

وصيرنـــى هـــواك وبـــى ∴ لحينـــى يضـــرب المثـــلُ[1]

وقوله:

يزيـــدك وجهـــه حسنـــا ∴ إذا مـــا زدتـــه نظـــراً[2]

أن تزعم أن "لصيرنى" فاعلاً قد نقل عنه الفعل، فجعل "للهوى"، كما فعل ذلك فى "ربحت تجارتهم"، و "يحمى نساءنا ضرب"، ولا تستطيع كذلك أن تقدر "ليزيد" فى قوله: "يزيدك وجهه"، فاعلاً غير "الوجه"، فالاعتبار إذن بأن يكون المعنى الذى يرجع إليه الفعل موجوداً فى الكلام على حقيقته.

معنى ذلك أن "القدوم" فى قولك: "أقدمنى بلدك حق لى على إنسان" موجود على الحقيقة، وكذلك "الصيرورة" فى قوله: "وصيرنى هواك" و"الزيادة" فى قوله: "يزيدك وجهه" موجودتان على الحقيقة، وإذا كان معنى اللفظ موجوداً على الحقيقة، لم يكن المجاز فيه نفسه، وإذا لم يكن المجاز فى نفس اللفظ، كان لا محالة فى الحكم، فاعرف هذه الجملة، وأحسن ضبطها، حتى تكون على بصيرة من الأمور"[3].

وكذلك الأمر هنا، لأنك لا تستطيع أن تقدر "للحزن" فاعلاً سوى "الكفر" وفى نفس الوقت لا تستطيع أن تدعى أن المجاز فى نفس لفظ "الكفر" لأن معناه موجود على الحقيقة، فبقى أن يكون المجاز فى إسناد الحزن إلى الكفر.

ولا يستشكل على ذلك، بأن الله هو موجد الأشياء كلها على الحقيقة، فيكون الفاعل الحقيقى للحزن هو الله – سبحانه

(١) نسبه عبد القاهر لابن البواب، وهو فى الأغانى جـ٦: ١٦٨. ١٦٩ لسليم بن سلام الكوفى المغنى صاحب إبراهيم الموصلى.

(٢) هو لأبى نواس فى ديوانه.

(٣) دلائل الإعجاز ص ٢٩٦، ٢٩٧.

وتعالى – لأن قولنا أو اعتقادنا بأن "خالق الأفعال كلها هو الله، وأنه – سبحانه- هو الفاعل الحقيقى لكل شئ، لا يعنى أن تكون كل الصور التى تسند فيها الأفعال لغيره سبحانه صوراً مجازية، وهذا لو قلناه لكان ضرباً من الهذيان، ولقادنا إلى كبيرة حين نسند أفعال القيام، والقعود، والأكل، والشرب، وغيرها مما يتنزه عنه جلاله"(١).

وقد أشار السبكى إلى أن الإسناد الحقيقى ليس باعتبار التأثير، بل لأعم منه، كقولك: قام زيد، فهو غير مؤثر القيام، ومع ذلك فنسبة القيام إليه حقيقة، وذلك لأن العرب لم تلاحظ فيه، غير نسبة القيام إليه، وإن كان الله – تعالى – خالقها، ومن هنا لا يصح سلب القيام عنه، ثم ذكر أن الإسناد الحقيقى هو ما يراد به:وقوع الفعل من فاعله حقيقة بمعنى التأثير، وذلك يختص بالله – سبحانه وتعالى – كقولنا: خلق الله ورزق الله، الثانى: ما يراد وقوعه حكماً مثل: قام زيد. الثالث: ما يراد به مجرد الاتصال مثل: "مرض زيد. وكل ما لا كسب فيه مثل: "برد الماء"(٢).

ويشير عبد القاهرة إلى بلاغة هذا المجاز فيقول "وهذا الضرب من المجاز، على جدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ، فى الإبداع والإحسان، والاتساع فى طرق البيان، وأن يجئ بالكلام مطبوعاً مصنوعاً، وان يضعه بعيد المرام، قريباً من الأفهام. ولا يحزنك من أمره أنك ترى

(١) خصائص التراكيب ص ٦٧.
(٢) عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكى جـ١، ص٢٢٨. ط بيروت.

الرجل يقول: "أتى بى الشوق إلى لقائك ، وسار بى الحنين إلى رؤيتك، وأقدمنى بلدك حق لى على إنسان" وأشباه ذلك مما تجده لسعته، وشهرته يجرى مجرى الحقيقة، التى لا يشكل أمرها، فليس هو كذلك أبداً، بل يدق، ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها، والنادرة تأنق لها"(١).

ولعل إسناد الحزن – هنا– للكفر إنما يشير إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ– من كمال إخلاص، ونهاية شكر لله رب العالمين، وكان من أماره ذلك، حزنه وأساه لو جود الكفر بالله من أى إنسان، وفى أى مكان، بعدما رأى من دلائل قدرته. وسابغ نعمته. وإذا كان لقمان قد مدح لأنه أمر بالشكر فشكر، ونهى ابنه عن الشرك بالله دون إشارة إلى حزنه وأساه، فإن الكلام هنا يكون منبئاً عن الدرجة العالية، والمقام المحمود الذى بلغه رسول الله – ﷺ– بتمام عبوديته، وكمال إخلاصه.

وأمر آخر يلفتك إليه: هذا الإسناد، وهو: أن حزنه – ﷺ– لكفر الكافر مشير، إلى مدى شفقته، ورحمته. وحبه. وحنانه، وهل يجزن كل هذا الحزن على ضياع الإنسان وضلاله إلا حبيب مشفق؟! وداع رحيم؟!

ويؤيد ذلك ما أشار إليه القرآن الكريم فى غير موضع من مبالغته – ﷺ– فى دعوة الناس إلى التوحيد، دعوة من يرى ويستقرب هلال المدعو، إذا استمر على ما هو عليه. ودعوة من يرى نعيماً لا حصر له ولا نهاية لمن آمن به واتبعه.

(١) دلائل الإعجاز، ص٢٩٥.

يقول الحق: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[١].

ويقول: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[٢].

وقوله: "إلينا مرجعهم" واقع موقع التعليل للنهى عن الحزن. وفيه كناية عن عدم إفلاتهم من العقاب، ثم تأمل ما يوحى به تقديم الجار والمجرور، وضمير العظمة، من الاختصاص والقدرة، والقوة.

وقوله: "فننبئهم بما عملوا" كناية عن المجازاة، استعمل الإنباء وأريد لازمه"[٣]، غير أن استخدام الإنباء فى الكناية عن العذاب فيه إشارة إلى أن ما عملوه مدون ومحفوظ ليكون حجة عليهم. واستخدام الفاء – بما تفيده من ترتيب وتعقيب – يشير إلى التعجيل بعذابهم فور رجوعهم إلى الله سبحانه.

واستخدام الموصول وصلته فى قوله: "بما عملوا" فيه إشارة إلى استهجان إعادة ذكر الكفر مرة ثانية، إذ كان حقه فننبئهم بكفرهم، كما أنه يوحى بتفظيع جرمهم وأنه أمر عظيم.

---

(١) الكهف: ٦.
(٢) فاطر: ٨.
(٣) التحرير والتنوير جـ١، ص١٧٨.

وقوله: "إن الله عليم بذات الصدور" كناية عن النوايا والضمائر بما كانت تحويه من حقد وحسد وكفر. وفيه إشارة إلى أن الله سبحانه لا يخفى عليه كفر من أظهر الإيمان بلسانه وكفر بقلبه، كما ظهر كفر من كفر بلسانه، وهو عالم أيضاً بكفر من كفر بلسانه غير أن قلبه مطمئن بالإيمان وأكد – هنا – مع أن المخاطب رسول الله ﷺ وهو لا ينكر علم الله بالسر وأخفى. وإحاطته بذات الصدور، لتأكيد مضمون الخبر.

كما أنه لا يخفى من إشارة إلى سبب النهى له – ﷺ – عن الإقلاع، وهو أنهم أضمروا فى أنفسهم الإصرار على ما هم عليه. بل تجاوزوه إلى حد الكيد بك، لحقدهم عليك، وكراهيتهم لك. فيكون فى الكلام باعث آخر خفى – للرسول ﷺ – على الانتهاء من الحزن على كفرهم.

****

ولما تشوف المسلم إلى إهلاك من هذا شأنه وإلى العلم بمدة ذلك، وكان من طبع الإنسان العجلة، أجاب من يستعجل بقوله – عائدا إلى مظهر العظمة التى يتقاضاها إذلال العدو و إعزاز الولى –:

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[1].

وهو استئناف ببانى لأن قوله: ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[2].

(١) لقمان: ٢٤.
(٢) لقمان: ٢٣.

يثير فى نفوس السامعين سؤالا عن عدم تعجيل الجزاء إليهم، فبين بأن الله يمهلهم زمناً، ثم يوقعهم فى عذاب لا يجدون منه منجى"[١].

والمتاع والتمتع: نيل الملذات والمرغوبات غير الدائمة. ويطلق المتاع على ما يتمتع به الإنسان وينتفع من الأشياء.

ووصف المتاع بأنه قليل، إنما هو للتهوين من أمره. والتحقير من شأنه. وقلته بالنسبة إلى ما يفوتهم فى الآخرة من نعيم مقيم، أو بالنسبة إلى قلة مدته فى الدنيا، وهى تلك الفترة التى يمكن للإنسان أن يلتذ – فيها- بالمرغوبات دون منغصات.

فإن قلت ما بال الله بمتعهم – ولو قليلاً – مع أنهم كفروا به؟ قلت: لعل فى هذا التمتيع ضرب من التزيين والاستدراج. لأنهم لما أصروا على الكفر بالله – سبحانه- رافضين الإقرار بوجوده، رغم وضوح الدلائل وسطوع البراهين. يسر الله لهم أسباب الكفر، بأن مكنهم من التلذذ بشهوات الدنيا ومتاعها. ثم إنهم إذا علموا أنهم يفارقون هذا المتاع بعد حين، فإن ذلك يكون سببا فى حسرتهم وألمهم، فكان التمتيع فى حد ذاته طريقا موصلة للعذاب النفسى فى الدنيا.

والاضطرار: الإلجاء.

وقد أشار الزمخشرى إلى أن قوله: "نضطرهم" مستعار للإلزام، حيث شبه إلزامهم التعذيب، وإرهاقهم إياه، باضطرار المضطر إلى الشئ الذى لا يقدر على الانفكاك منه"[٢].

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ١٧٨،١٧٩.
(٢) الكشاف جـ٣، ص٤٨٤.

"وذلك لأنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد، فيرسل الله عليهم الزمهرير، فيكون عليهم كشدة اللهب، فيتمنون عود اللهب اضطراراً، فهو إخبار عن اضطرار"(١).

وفى وصف العذاب بقوله: "غليظ" استعارة تبعية تصريحية، لأن العذاب لما ثقل على النفس – وهو ثقل معنوى – شبه بالشئ الغليظ يحمل على الإنسان فلا يطيقه، بجامع عدم الطاقة على الاحتمال فى كل. ذلك أن الغليظ إنما هو من صفات الأجسام، فيقال: الغَلْظ من الأرض: الصلب من غير الحجارة،

والمعنى: نلجئهم إلى "عذاب شديد ثقيل، لا ينقطع عنهم أصلاً، ولا يجدون لهم منه مخلِّصاً، من جهة من جهاته، فكأنه فى شدته وثقله جرم غليظ جداً، إذا برك على شئ لا يقدر على الخلاص منه"(٢).

****

قوله تعالى:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣).

الواو عاطفة لما بعدها على قوله تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾(٤).

(١) حاشية الانتصاف على الكشاف للإمام أحمد بن المنير الإسكندرى جـ٣، ص٤٨٤، ٤٨٥.
(٢) نظم الدرر جـ٦، ص٢٨.
(٣) لقمان: ٢٥.
(٤) لقمان : ٢١.

باعتبار أن ما وجدوا عليه آباءهم هو الإشراك مع الله فى الإلاهية. وإن سألهم سائل: من خلق السموات والأرض. يقولوا خلقهن الله، وذلك تسخيف لعقولهم التى تجمع بين الإقرار لله بالخلق وبين اعتقاد إلاهية غيره"(١).

وقيل إنه:"كلام مستأنف مسوق لبيان تناقضهم مع أنفسهم، واعترافهم بما لا يسع المكابرين إنكاره من دلائل التوحيد الساطعة"(٢)، واللام موطئة للقسم، و"إن" شرطية. والاستفهام للتقرير بالفاعل، وقدم خلق السموات على خلق الأرض، لأن خلقها ورفعها، أدخل فى باب التقرير الذى سبق من أجله هذا الاستفهام، ثم عطف خلق الأرض، على خلق السموات. لأن خلقها يلى خلق السموات فى الفخامة، والعظمة. ولأن عليها معاش العباد، وإليها يعودون بعد الموت، وقوله: ليقولن الله : جواب القسم.

وهو جواب يدل على أن كفرهم إنما هو من باب العناد. فهم يقرون هنا بألسنتهم بأن الله هو خالق السموات والأرض ويعرفونه بقلوبهم ولكنهم لا يدينون به علوا واستكبارا، وأنهم كانوا يأنفون من إتباع الرسول - ﷺ- لفقرة، أو لفقر من آمن به.

بل إنهم كانوا يزعمون أنه لولا أن من المؤمنين ناس أهل خصاصة فى الدنيا،وأرقاء لا يدانوهم ولا يستأهلون الجلوس معهم، لأتوا إلى مجالسة النبى -ﷺ- واستمعوا القرآن. ولذلك

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٧٩.
(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ٦، ص١٠٠.

اقترحوا على النبى - ﷺ- أن يطردهم، ويؤيد هذا قوله تعالى فى سورة الأنعام:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

وهذه الحجة هى حجة المشركين الذين يتكبرون على اتباع الحق لا لشيء إلا لأن من اتبعه هم الضعفاء.

انظر إلى الملأ من قوم نوح عليه السلام، ماذا قالوا رداً على دعوته لهم إلى التوحيد، لأنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم !

يقول تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾(٢).

"وهذا يدل على ضعف الكفر، وأن الأصنام التى عبدت من دون الله أشد ضعفاً، والمشركون لأنهم كافرون، لم يدعوا يوماً من الأيام، أن أصنامهم خلقت شيئاً، ما بله خلق السموات والأرض، ولم يدعوا أن أصنامهم حركت شمساً، أو أدارت قمراً، لم يدعوا شيئاً من ذلك، لأن عقولهم تأباه، ولأن الواقع يدحضه، وكيف يكون الخالق بعضاً مما خلقه هو!" (٣).

(١) الأنعام : ٥٢.
(٢) هود : ٢٧.
(٣) التفسير البلاغى للاستفهام جـ٣، ص٢٣٣.

وبذلك تكون الحجة قد اتضحت على المشركين فى أن الله هو المنفرد بخلق السموات بلا عمد، وأنه هو الذى ألقى فى الأرض تلك الرواسى الشامخات، لئلا تميد وتضطرب، وهو الذى بث فيها من كل دابه، وأنه هو الذى أنزل من السماء ماء لينبت به كل زوج كريم،

وتكون الحجة قد اتضحت – أيضا – على علم الله المحيط بكل شئ، وقدرته على كل شئ، وعلى تسخيره ما فى السموات من شموس، ونجوم وكواكب، وأقمار، وما فى الأرض من جبال وبحار، وحيوانات وأنهار، ولزم من ذلك أن ليس لأصنامهم شرك فى كل هذه الأفعال، وبذلك يثبت صدقه – ﷺ – فيما دعاهم إليه، وكذبهم فيما تطاولوا به من شراء لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله، ويتخذونها هزوا.

من أجل ذلك قال تعالى: مستحمداً رسوله الكرم: "قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون" أى: "على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به، ثم نفعه ذلك فى توحيد الله،ونفى الأنداد والشركاء عنه، ولم يكن إقرارا عاطلاً كإقرار المشركين، وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم، حيث نسبوا النعمة إلى الله، وجعلوا العبادة للصنم"(١).

ومقول القول "الحمد لله" يعنى الإخبار عن جنس الحمد بأنه ثابت لله، فالتعريف فيه للجنس، ولذا فهو يعم كل حمد. أى الحمد منه، ومنك، ومن كل الخلق إنما هو لله وحده، لا يشاركه فيه أحد سواه. وهو بالرفع: أى: "الحمد" أبلغ فى الدلالة على

(١) الكشاف جـ٣، ص٤٤٧.

اختصاص الله بالحمد منه بالنصب لأن قولك: "الحمد لله" إنما يدل على الثبوت والدوام على اعتبار اسمية الجملة، وأما النصب فأصله على إضمار فعل كأنك قلت: أحمد الله حمداً.

يقول الزمخشرى: "والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره، ومنه قوله تعالى:﴿ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ ﴾[1].

رفع السلام الثانى للدلالة على أن إبراهيم عليه السلام، حياهم بتحية أحسن من تحيتهم، لأن الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم دون تجدده وحدوثه"[2].

وقدم "الحمد" على المسند إليه المجرور، مع تضمنه لاسم الجلالة، وهو أولى بالاهتمام، "اعتباراً لأهمية الحمد العارضة، وإن كان ذكر الله أهم أصالة، فإن الأهمية العارضة تقدم على الأهمية الأصلية، لاقتضاء المقام والحال، والبلاغة هى المطابقة لمقتضى الحال"[3].

والأهمية العارضة التى تتطلب الحمد، تتجلى فى التأكيد على إقرار المشركين بخلق الله للسموات والأرض عند سؤالهم عن خالقها مع ما كان منهم من إصرار على الشرك بالله، ورفض لاتباع ما أنزله،وحرص على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم.

(١) هود : ٦٩.
(٢) الكشاف جـ١، ص١٩١.
(٣) التحرير والتنوير جـ٢١، ص ١٦٥.

وهذا إنما يؤكد للرسول - ﷺ- هو ومن آمن معه، أنهم على الحق، وعلى الصراط المستقيم، فيزدادوا به تمسكا، وعنه دفاعاً، وهذا المقام يستأهل حمد الله - سبحانه-، لأنه انتصار للحق على الباطل، وكأن الله الذى سخر لهم ما فى السموات والأرض، جعل ألسنتهم تقر إقراراً - هو حجة عليهم - بصدق ما جاء به القرآن برهاناً وحجة على وحدانيته وتفرده بالألوهية.

وقوله: "بل أكثرهم لا يعلمون" إضراب عما سبق من حمد الله على انتصار الحق، وإقرارهم بما هو حجة عليهم. إلى ذمهم بنفى العلم عنهم، أى لا يعلمون بأن ذلك حجة عليهم. أو بأنه نصر من الله يؤيد به من آمن به، أو لا يعملون سخف ما يقعون فيه من تناقض بين إقرارهم، وما هم عليه من شرك. وإسناد العلم إلى أكثرهم، فيه إغراء لهم بأن يثوبوا إلى رشدهم عندما يعلمون الحقيقة، ولذا فمنهم من آمن وحسن إيمانه.

****

المبحث الثاني

من مظاهر اختصاص الله ـ سبحانه وتعالى ـ الألوهية

أولا: اقتصار ملكية السموات والأرض وما فيهما عليه سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

"الغنى": هو الذى لا يحتاج إلى أحد فى شئ وكل أحد محتاج إليه، وهذا هو الغنى المطلق، ولا يشارك الله تعالى فيه غيره"[2].

"الحميد": الحمد: نقيض الذم، ويكون عن يد وعن غير يد، بخلاف الشكر، فإنه لا يكون إلا عن يد، والحمد: الثناء، "والحميد" من صفات الله تعالى وتقدس، بمعنى: المحمود على كل حال، وهو من أسماء الله الحسنى، فعيل بمعنى: مفعول[3].

وقد جاءت هذه الآية مفصولة عما قبلها، لأنها نزلت منها منزلة بدل لاشتمال من متبوعة، لأنه – جل شأنه – لما تحدث عن خلق السموات بغير عمد، وإلقاء الرواسى فى الأرض، وإنزال الماء من السماء، ثم قال: "**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض**" وكان الجواب "**ليقولن الله**" دل ذلك على أن له – سبحانه – ما فى السموات والأرض ملكاً ومُلكا، إلا أن قوله: "**لله ما فى السموات والأرض**" أوفى دلالة على هذا المعنى من الأولى، لما اشتمل عليه من خصوصيات خلت منها الآية التى قبلها، وهى:

---

(١) لقمان ٢٦.
(٢) اللسان مادة: غنا.
(٣) اللسان مادة "حمد".

١- تقديم "الجار والمجرور " المسند إليه" على المبتدأ، وأصل الكلام: ما فى السموات والأرض لله، وهذا التقديم يفيد القصر والاختصاص، أى اختصاص الحق – سبحانه- بكل ما فى السموات والأرض ما نعلمه، وما لم نعلمه. ما نراه، وما لا نراه، وقصر ذلك عليه قصراً حقيقياً تحقيقيا.

٢- التعبير بالموصول "ما" وصلته، حيث يوحى بالعموم. والخفاء، والكثرة، كما يشير إلى عجز الإنسان، وعدم قدرته على الإحاطة بما خلقه الله – سبحانه – أو حصره.

كما أنه يؤكد على عظمة ذلك الجانب الخفي الذى لم يصل إليه إدراك الإنسان، والذى يتناسب مع قوله: إن الله هو الغنى الحميد"، بما اشتمل عليه من مؤكدات. تتطابق مع أهمية مضمونه، وتقرره فى النفوس على هذا القدر من الفخامة والروعة، التى يبثها وضع لفظ الجلالة موضع الضمير، وقصر الغنى والحمد عليه سبحانه. وتأكيد ذلك بضمير الفصل.

"والتصريح بهذه النتيجة – هنا – لقصد التهاون بهم فى كفرهم، بأن الله يملكهم، ويملك ما فى السموات والأرض، فهو غنى عن عبادتهم محمود من غيرهم[١].

ثانيا: عدم تناهي علمه وحكمته:

قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢].

(١) التحرير والتنوير جـ١، ص١٨٠.
(٢) لقمان : ٢٧.

وفى وجه اتصال هذه الآية بما قبلها وما بعدها اختلف المفسرون لما فيه من خفاء، وقد حاول أصحاب التأويل من السلف من أصحاب ابن عباس، أن يبينوا وجه إيقاع هذه الآية فى هذا الموقع.

فقيل سبب نزولها ما ذكره الطبرى وابن عطية، والواحدى عن سعيد بن جبير وعكرمة وعطاء بن يسار بروايات متقاربة: أن اليهود سألوا رسول الله - ﷺ- أو أغروا قريشاً بسؤاله، لما سمعوا قول الله تعالى فى شأنهم: "**يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**"(١)، فقالوا: كيف؟ وأنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شئ! فقال رسول الله - ﷺ- لمن سألوه: هى فى علم الله قليل، ثم أنزل الله "**ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام**" الآيتين أو الآيات الثلاث.

وعن السدى قالت قريش: ما أكثر كلام محمد! فنزلت "ولو أنما فى الأرض من شجرة" الآية.

وعن قتادة قالت قريش: سيتم هذا الكلام لمحمد وينحسر (أى محمد - ﷺ- فلا يقول بعده كلاماً).

وهذا الكلام ذكره ابن عطية فى المحرر الوجيز(٢) وعلى أساسه فسر الآية القاضى أبو السعود فى تفسيره(٣)، وصاحب البيضاوى، والقاضى شهاب الدين الخفاجى فى حاشيته على تفسير البيضاوى(٤)، والزمخشرى فى الكشاف(٥).

---

(١) الإسراء: ٣٥.
(٢) جـ٤، ص ٣٥٣، ٣٥٤.
(٣) جـ٥٤، ص١٩٣.
(٤) حاشية الشهاب على البيضاوى جـ٧، ص٤٢٩
(٥) جـ٣ ص ٤٨٦.

وذكروا أن المعنى: ولو أن أشجار الأرض أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر، وكتبت بتلك الأقلام، وبذلك المداد كلمات الله، لما نفدت كلماته، ونفدت الأقلام والمداد، كقوله تعالى:﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي ﴾[1].

ويعلق الألوسى على تأويل الآية بهذا المعنى بقوله: "وفى وجه ربط الآية عليه بما قبلها، وكذا بما بعدها خفاء جداً"[2].

لأن الآيات من بداية السورة إنما كانت تدل على استحقاق الله للربوبية الخالصة، فالحديث عن خلق السموات بغير عمد، وإلقاء الرواسي فى الأرض لئلا تميد وتضطرب، ونشر الدواب فيها، وإنزال الماء من السماء لينبت فى الأرض من كل زوج بهيج، ثم الإشارة إلى ذلك كلة بقوله:

﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[3].

وأن ما عداه لم يخلق ولن يخلق شيئاً، ثم جعل هذا كالأساس لأمر لقمان بالشكر لله، وأمره لابنه بالشكر، ونهيه عن الشرك، والإشارة إلى إحاطة علم الله تعالى بكل ما لطف، وما خفى فى السموات والأرض، وتعلق قدرته بكل ما فيهما، لأنه هو الذى خلقهما، وبالتالى يلزم من ذلك، أن يكون علمه محيطاً بكل ما يصدر من الإنسان من قول أو فعل، وبما أسرَّه، وأعلنه، وأن

(١) الكهف: ١٠٩.
(٢) روح المعانى مـ١١، جـ٢١، ص٩٩.
(٣) لقمان : ١١

الإنسان – بضعفه، وعجزه، وجهله أمام هذه القدرة المطلقة، والعلم المحيط بكل شئ، لا ينبغي له أن يتكبر، أو يتطاول ويتجبر، وإنما عليه أن يتأدب بكل ما يحبه الخالق من خلال، ويكون الدافع لذلك إحسان الله – تعالى – إليه وإسباغ نعمه عليه، دون أن يقدم لله ما يستحق عليه ذلك.

ومع ذلك وجد من يجادل فى الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، ويأنف من اتباع ما أنزله خالق السموات والأرض، وسابغ النعم، مؤثراً اتباع ما وجد عليه الآباء، مع أن الشيطان قائدهم إلى عذاب السعير.

وهؤلاء الذين كفروا، نهى الحق رسوله الأمين عن الحزن على كفرهم، لأن مرجعهم إليه، ولأن كفرهم ليس له أساس من الحكمة، بدليل أنك إذا سألتهم عمن خلق السموات والأرض، لقالوا لك الله، فلا ينبغى أن يكون كفرهم مصدر قلق أو خوف، لأنهم من خلق الله، والله مالك السموات والأرض بكل ما خلق فيهما ولا يحيط به إلا علم الله وقدرته.

ثم يأتى قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾[1].

ثالثا: قدرته المطلقة على الخلق والبعث:

ثم يتحدث بعده عن قدرته المطلقة على الخلق والبعث فى قوله: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[2].

وهذا الكلام وإن كان يطول عليك، إلا أنى أردت أن أضع أمامك سياق الحديث، وطريقة سير المعانى ونموها من بداية

(١) لقمان: ٢٧.
(٢) لقمان: ٢٨.

السورة وحتى هذه الآية وما بعدها، لتستطيع أن تضع يديك على ما يتطابق وسياق حديث الآيات عن الخلق قبلها وبعدها.

وقد ذكر الإمام فخرالدين الرازى: أن الله تعالى لما قال: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[١]. وكان ذلك موهما لتناهى ملكه لانحصار ما فى السموات وما فى الأرض فيهما. وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن فى قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال: "ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ويكتب بها، والأبحر مداد، لا تفنى عجائب صنع الله، وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجيبة، ووجهها: أن العجائب بقوله: كن. وكن كلمة، وإطلاق اسم السبب على المسبب جائز، يقول الشجاع لمن يبارزه أنا موتك، ويقال للدواء فى حق المريض: هذا شفاؤك. ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة. لأنه كان أمراً عجيباً، وصنعاً غريباً لوجوده من غير أب"[٢].

وإليه ذهب الإمام برهان الدين البقاعى[٣]. حيث قال: "ولما كان الغنى قد يكون ماله محصوراً، كما فى السموات والأرض الذى قدم أنه له، والمحمود قد يكون ما يحمد عليه مضبوطاً مقصوراً، أثبت أنه على غير ذلك، بل لا حد لغناه، ولا ضبط لمعلوماته ومقدوراته الموجبة لحمده، ولا تناد... ثم يقول: ويتبع الكلمات الإبداع، فلا تكون كلمة إلا لإحداث شأن

(١) لقمان : ٢٦.
(٢) التفسير الكبير جـ٢٥، ص١٣٧.
(٣) نظم الدرر جـ٦، ص٢٩، ٣٠.

من الشئون، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

وذكره أيضاً شهاب الدين الألوسى قال: المراد – أى بكلماته – سبحانه – مقدوراته جل وعلا – وعجائبه – عز وجل – التى إذا أراد سبحانه شيئا منها قال تبارك وتعالى:﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾[2]. ومن ذلك قوله تعالى فى عيسى: ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾[3].

ثم يقول وإطلاق الكلمات على ما ذكر من إطلاق السبب على المسبب، وعلى هذا وجه ربط الآية بما قبلها أظهر[4].

فجعله من باب المجاز العقلى لعلاقة السببية.

وهذا وجه أستريح إليه:

لأنك تقرأ قول الحق سبحانه فى سورة آل عمران : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[5].

فسمى عيسى عليه السلام كلمة، وكذلك قى قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾[6].

---

(١) يس : ٨٢.
(٢) البقرة ١١٧.
(٣) النساء : ١٧١.
(٤) روح المعانى مـ١١، جـ٢١، ٩٩.
(٥) آل عمران : ٣٩.
(٦) النساء: ١٧١.

وقد أشار الفخر إلى وجه التسمية بذلك فقال: "إنه خلق بكلمة، وهى قوله: "كن" من غير واسطة الأب، فلما كان تكوينه بمحض قول الله "كن"، وبمحض تكوينه، وتخليقه من غير واسطه الأب والبذر، لا جرم سمى: كلمه وتقرأ كذلك قوله فى سورة فصلت،

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (١).

"والفائدة فى قوله: "فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً" إظهار كمال القدرة، والتقدير، فإن قلت ما المراد من قوله : "ائتيا ومن قوله: "أتينا"؟

الجواب: المراد ائتيا إلى الوجود والحصول، وهو كقوله: كن فيكون"(٢).

فكأن السموات والأرض خلقتا بكلمة، كما خلق عيسى – عليه السلام– بكلمة، وكذلك شأنه إذا أراد أن يخلق شيئاً فإنما يخلقه بكلمة. وعلى هذا التأويل يكون المراد بالكلمات المخلوقات. ويؤيده قوله تعالى فى سورة يس: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن

(١) فصلت : ١١.
(٢) التفسير الكبير جـ٢٧، ص٩١.

يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1].

فتكون الآية مسوقة لبيان أنه لا حد لغناه، ولا حصر لمخلوقاته، ومقدوراته، التى لا يحيط بها علم إلا علمه، وأن ما أشارت إليه الآيات السابقة، وسيق ليكون دليلا وبرهانا على تفرده بالوحدانية،واستحقاقه الألوهية، ليس إلا بعض ما خلق، وأن ما غاب عنكم واستأثر هو بعلمه من مخلوقاته، لو فرض أن أشجار الأرض أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر، وكتبت بتلك الأقلام، وبذلك المداد تلك المخلوقات لما نفدت، ونفدت الأقلام والمداد. والله أعلم بمراده.

وقد نظمت هذه الآية بإيجاز بديع، حيث ابتدئت بـ "لو"، وهى هنا ليست "لو" الامتناعية، وإنما هى "لو" المشتهرة بين النحاة بـ"لو" الصهيبية، بسبب وقوع التمثيل بها بينهم، بقول عمر بن الخطاب: "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه" وهى التى تستعمل لقصد الدلالة على أن مضمون الجزاء، مستمر الوجود فى جميع الأزمنة والأحوال عند المتكلم، فتأتى جملة الشرط حينئذ متضمنة الحالة التى هى مظنة أن يختلف مضمون الجزاء عند حصولها، فالمقصود من هذا القول: انتفاء العصيان من صهيب فى جمع الأزمنة والأحوال حتى فى حال أمنه من غضب الله، وليس المراد أنه: لو خاف عصى، ولكن المراد انه لو فرض عدم خوفه لما عصى،

(١) يس : ٨١، ٨٢، ٨٣.

وعلى هذا يكون المقصود بدخول "لو" فى الآيـة، عـدم انتهاء كلمات الله، حتى فى حالة ما لو كتبت بماء البحـر كلـه، وجعلت أعواد الشجر كله أقلاماً، كما يعنى دخولها أن "مضمون الجزاء حاصل لا محالة، سواء فرض حصول مضمون شـرطها أو فرض انتفاؤه"[١].

ووحد الشجرة، وجمع الأقلام، ولم يقل: ولو أن ما فـى الأرض من الأشجار، بالجمع ، ولا قال: ولو أن ما فـى الأرض من شجر، أى باسم الجنس لأنه أراد تفصيل الشجر، وتقصـيها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قـد بريت أقلاماً"[٢]، فهو يشير بذلك إلى التكثير.

وتعريف البحر باللام "لإفادة استغراق الجنس، أى وكـل بحر مداد، ثم قوله "يمده من بعده سبعة أبحر" إشارة إلى بحـار غير موجودة"[٣]. أى لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر.

والسبعة: "تستعمل فى الكناية عن الكثرة كثيـراً، كقـول النبى - ﷺ- المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكر فى سبعة أمعاء إشارة إلى قلة الأكل وكثرتـه مـن غيـر إرادة السـبعة بخصوصها، فيكون المقصود من قوله: "سبعة أبحـر" أى أبحـر كثيرة، وليس خصوص هذا العدد.

"**ما نفدت كلمات الله**" أى ما انتهت أى فكيف تحسب اليهود أن ما فى التوراة هو منتهى كلمات الله.

---

(١) راجع النحو الوافى جـ٤، ٤٩٤ وما بعدها، ومغنى اللبيب جـ١، ص٢٥٧، وما بعدها.
(٢) الكشاف جـ٣، ص٤٨٦.
(٣) التفسير الكبير جـ٢٥، ص١٣٧.

أو كيف يحسب المشركون أن ما نزل من القرآن أوشك أن يكون انتهاء القرآن، فيكون المثل على هذا الوجه وارداً مورد المبالغة فى كثرة ما سينزل من القرآن إغاظة للمشركين"(١). وذلك على اعتبار ما ذهب إليه الزمخشرى وابن عطية ومن تبعهما فى تأويل الآية وسبب نزولها فيما روى عن ابن عباس.

ولكن على اعتبار ما ذهب إليه الفخر، والألوسى، من أن الكلمات إنما يراد بها المخلوقات. يكون المقصود بقوله: " ما نفدت كلمات الله أى ما انتهت مخلوقاته، وأنها ليست محدودة فيما ذكر منها من خلق السموات، ورفعها بلا عمد، وإلقاء الرواسى فى الأرض، بل هى أكثر من أن يحيط بها عقل، أو تحصيها أقلام، ويكون الكلام فيها على سبيل الحقيقة، لأن جزاء "لو" واقع سواء وقع الشرط أم لا.

فسبحان من لا يحيط بمعلوماته إلا علمه، وسبحانه من لا يقدر على مقدوراته إلا قدرته.

"وأشار بجمع القلة مع الإضافة إلى اسم الذات " إلى زيادة العظمة بالعجز عن ذلك القليل، فيفهم منه العجز عن الكلم من باب أولى"(٢).

"**إن الله عزيز حكيم**" أى كامل القدرة، فيكون له مقدورات لا نهاية لها، وإلا لانتهت القدرة إلى حيث لا تصلح للإيجاد، وهو حكيم كامل العلم، ففى علمه ما لا نهاية له، فتحقق أن البحر لو كان مدادا لما نفد ما فى علمه وقدرته"(٣).

---

(١) التحرير والتنوير جـ١، ١٨٢.
(٢) نظم الدرر جـ٦، ٣٠.
(٣) التفسير الكبير جـ٢٥، ١٣٨.

وقد فصلت هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال، أو الاستئناف البياني، وهو ليس كلاما منقطعا عن سابقه، وإنما هو جواب يتم به الكلام المنبثق من الجملة السابقة.

وقد ذكر الألوسي أن قوله تعالى: "**إن الله عزيز حكيم**"، "تعليل لعدم نفاد كلماته تبارك وتعالى"[١]، أي كأن سائلا سأل عن علة عدم نفاد كلمات الله – سبحانه وتعالى – فكان الجواب: **إن الله عزيز حكيم**"[٢]. ثم إن المخاطب بهذه الآية، لما استشرفت نفسه، وتطلعت إلى معرفة السبب والعلة في عدم نفاد كلمات الله – سبحانه – حتى مع فرض أن أشجار الأرض كلها جعلت أقلاما، والبحر الممدود بأبحر مدادا – وهو أمر يبعد مثله في ظن المخاطب – أكد قوله تعالى: "**إن الله عزيز حكيم**".

وقد ذكر الإمام عبد القاهر، أن التوكيد بإن يزداد حُسناً في الكلام "إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله في الظن، وبشيء قد جرت عادة الناس بخلافه"[٣].

ثم تأمل وضع لفظ الجلالة – هنا – موضع الضمير، فلم يقل: إنه عزيز حكيم، وقال: "**إن الله عزيز حكيم**" فأكسب المعنى هيبة وفخامة وروعة تقشعر لها الأبدان وتلين بها الجلود والقلوب.

---

(١) روح المعاني، م:١١، ج:٢١، ص:٩٩.

(٢) راجع دلائل الإعجاز ص: ٢٣٥، ت: محمود شاكر، ط: مطبعة المدني، وشروح التلخيص، ج:٣، ص: ٥٣، وما بعدها، ط: دار السرور، بيروت، لبنان.

(٣) دلائل الإعجاز، ص: ٣٢٥، ت: محمود شاكر.

ثم تأمل ما قاله: القاضى أبو محمد بن عطية الأندلسى – لتقف على أن ما وقف عليه ليس إلا قطرة من بحرها- يقول: "وهذه الآية بحر نظر"(١).

قوله تعالى:﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾(٢).

قوله تعالى: "**ما خلقكم**". الخلق: ابتداع الشئ على مثال لم يسبق إليه، وكل شئ خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه. قال أبو بكر الأنبارى: الخلق فى كلام العرب على وجهين: أحدهما: الإنشاء على مثال أبدعه، والآخر: التقدير. وخلق الله الشئ: أحدثه بعد أن لم يكن.

"ولا بعثكم". البعث. الإحياء من الله للموتى، وبعث الله الموتى: نشرهم ليوم البعث،وبعث الله الخلق يبعث بعثاً: نشرهم.

الحق – سبحانه – لما ختم الآية السابقة بإثبات صفتى العزة والحكمة بعد أن أثبت لنفسه القدرة على الإبداع والخلق، من غير انتهاء، ولا حصر، ذكر – هنا – بعض آثار هاتين الصفتين فى البعث،الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله: ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾(٣) وقوله:﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٤) وقوله: ﴿ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٥) ثم كان التحذير فى قوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ

(١) المحرر الوجيز جـ٤، ص٣٥٤.
(٢) لقمان: ٢٨.
(٣) لقمان : ٤.
(٤) لقمان : ٧.
(٥) لقمان: ١٤.

مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١] وقوله : ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾[٢] مؤكداً على سهولته بالنسبة له، وأن خلق الناس وبعثهم ما هو إلا كخلق وبعث نفس واحدة.

وذلك "لأنه كلما ذكر أمر البعث هجس فى نفوس المشركين استحالة إعادة الأجسام بعد اضمحلالها، فعقب ذلك بما يشير إلى إمكانه وسهولته بالنسبة إلى قدرته المطلقة.

والآية تثبت قدرة الحق – سبحانه – على الخلق، وابتداع الأشياء على مثال لم يسبق إليه، وإحداثها بعد أن لم تكن، وقدرته على النشر ليوم البعث، وذلك عن طريق تشبيه خلق المخلوقات كلها بخلق نفس واحدة، وكذلك بعثها ببعث نفس واحدة، والوجه أنهما أى: القليل والكثير فى قدرته سواء. كما لا يتفاوت الجمع والواحد، " وإنما كانت تتفاوت النفس الواحدة والنفوس الكثيرة العدد: أن لو شغله شأن عن شأن وفعل عن فعل"[٣].

ثم إنه بنى على هذا التشبيه قصرا ليزيد من تأكيد ذلك المعنى، ويبين إمكانه، فقصر خلق العباد وبعثهم على كونهما كخلق النفس الواحدة وبعثها، في سهولة التأتي بالنسبة إليه عز وجل.

---

(١) لقمان: ١٥.
(٢) لقمان : ٢٣.
(٣) الكشاف جـ٣، ص٤٨٦.

وهو من قصر الموصوف على الصفة قصر حقيقيا، وهو بذلك يقلب اعتقاد المخاطب الذي ينكر ذلك على الله سبحانه وتعالى.

واختيار الكاف – هنا – دون "مثل" لأن القصد هو مطلق مشابهة بين الفعلين اللذين هما المشبه والمشبه به فى مطلق الوجود والوقوع[1] أى تشبيه الخلق حالة كونه واقعاً على جميع الناس، به واقعاً على نفس واحدة. والبعث واقعاً على جميع الناس به واقعاً على نفس واحدة. فى السهولة واليسر.

وذلك لأن خلق نفس واحدة هذا الخلق التام، إنما يدل على تمام قدرة خالقها، "فإذا كان كامل القدرة استوى فى جانب قدرته القليل والكثير، والبدء والإعادة"[2].

وفائدة ذكر قوله "واحدة" بعد قوله: "كنفس" هو التأكيد على سهولة الخلق والبعث، حالة كونه واقعاً على جميع الناس – "فنسبة القليل والكثير إلى قدرته على حد سواء، لأنه لا يشغله شأن عن شأن.

وجملة: "**إن الله سميع بصير**" واقعة موقع التعليل لكمال القدرة على ذلك الخلق العجيب، استدلالاً بإحاطة علمه تعالى بالأشياء، والأسباب، وتفاصيلها، وجزئياتها، ومن شأن العالم أن يتصرف فى المعلومات كما يشاء، لأن العجز عن إيجاد بعض ما

(١) راجع أدوات التشبيه. دلالاتها واستعمالاتها فى القرآن الكريم. د/محمود موسى حمدان ص ١١٨ وما بعدها.
(٢) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٨٣.

تتوجه إليه الإرادة إنما يتأتى من خفاء السبب الموصل إلى إيجاده"(١).

وقد يقال بأن المناسب لذكر الخلق والبعث أن يثبت لنفسه القدرة، أو ما يرجع إليها وإلى الفعل مثلاً، فلماذا ذكر السمع والبصر؟

يشير القاضى شهاب الدين الخفاجى إلى السرفى ذلك، "بأنه ذكر للاستدلال بأن تعلق علمه، وبصره، وسمعه، بشئ لا ينافى تعلقه بجميع ما عداه على أن ما يرجع إلى القدرة والفعل كذلك." (٢).

وحذف مفعولى "سميع" و "بصير" يشير إلى العموم، أى يسمع كل ما يمكن سمعه، ويرى كل ما يمكن أن يرى فى آن واحد، لا يشغله شيء منها عن غيره. فضلاً عما تفيده الصيغتان من مبالغة فى الدلالة على كمال الموصوف بهاتين الصفتين، وكمالهما فيه.

رابعا: إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل، وتسخيره للأجرام السماوية بحكمة بالغة:

قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٣).

لما ذكر فى الآية السابقة أن خلق الناس وبعثهم ليس إلا كخلق وبعث نفس واحدة، وذلك لكمال قدرته، فهو لا يشغله شأن

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٨٤.
(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى جـ٧، ص٤٣٠.
(٣) لقمان: ٢٩ .

عن شأن والقليل والكثير فى قدرته سواء، مثيراً بـذلك دهشـة الإنسان وعجبه، فجاءت هذه الآية بمنزلة الدليل على ما ذكـره فى الآية السابقة من كون الخلق والبعث فى متناول قدرته، بأنه قادر على تغيير ما هو أعظم حالاً من خلق الإنسان وبعثه، وهو تغيير أحوال الأرض بين برودة وحرارة من فصل إلـى فصـل، وأفقها بين ليل ونهار.

ووجه الاستدلال به من جهة أن تعاقب الليـل والنهـار، وإيلاج زمن أحدهما فى زمن الآخر، يشبه طرو المـوت علـى الحياة فى دخول الليل على النهار، وطرو الحياة على الموت فى دخول النهار على الليل.

فكأنه دلل بإمكان الأمر المحسوس، الذى يشاهده النـاس كل يوم، بما له من عظمة تفوق عظمة خلق إنسان أو بعثه، أو خلق الناس وبعثهم. بل إنه قادر على أعظم من هذا وذاك، وهو تسخير الشمس والقمر.

وقد صدرت الآية بهمزة الاستفهام، لكنـه لـيس علـى حقيقته هنا، وإنما خرج عن معناه إلى معنى آخر.

وقد ذكر الطاهر بن عاشور أن الاستفهام هنـا للإنكـار. قال: "والرؤية علمية، والاستفهام لإنكار عدم الرؤيـة، بتنزيـل العالمين منزلة غير عالمين، لعدم انتفاعهم بعلمهم"(١).

وقد علق الأستاذ الدكتور/ عبدالعظيم المطعنى على كلام الطاهر بقوله: "هذا استفهام سكت عن بيان المـراد منـه كـل المفسرين القدماء الذين تعودنا الرجوع إليهم فى هذه الدراسـة،

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ١٨٥.

وذلك لوضوحه ولتقديم نظائره، ما عدا الإمام الطاهر بن عاشور، فقد ذهب إلى أنه للإنكار.. وهذا سهو ظاهر من الإمام الطاهر لا المقام ولا التركيب يقبل ما قال:

أما المقام فلأن الكلام مسوق للفت الأنظار إلى ما استقرت رؤيته بقصد الامتنان على العباد، وبيان كمال قدرة الله عز وجل،وهذا لا يناسبه القول بالإنكار.

وأما التركيب، فلأن همزة الاستفهام دخلت على فعل منفى بـ "لم" فنفت ذلك النفى فعاد المعنى إثباتا، فلا صحة لما قاله الإمام الطاهر –عفا الله عنا وعنه.

والصواب أن هذا الاستفهام للتقرير والامتنان والإلماح إلى كمال قدرة الله عزوجل"[1].

وأرى أن الإمام الطاهر على صواب فيما ذهب إليه من كون الهمزة للإنكار، ولم يكن هناك ما يدعو لنفى الصحة عن كلامه. أو الإخبار بأنه "سهو ظاهر" وتحقيق المسألة كما يلى:

أشار الإمام عبدالقاهر إلى أن الهمزة عندما تكون للتقرير، أو للإنكار، أو للاستفهام فإن المقرر به، أو المراد إنكاره، أو المستفهم عنه هو ما يلى الهمزة. قال: "واعلم أن هذا الذى ذكرت لك فى الهمزة وهى للاستفهام" قائم فيها إذا كانت هى للتقرير، فإذا قلت: "أأنت فعلت ذاك؟" كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل . يبين ذلك قوله تعالى ، حكاية عن قول نمروذ : ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾[2] لا شبهه فى

(١) التفسير البلاغى للاستفهام جـ٣، ص٢٥٧.
(٢) الأنبياء: ٦٢.

أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام، وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقر بأنه منه كان، وكيف؟ وقد أشاروا له إلى الفعل فى قولهم: "أأنت فعلت هذا؟" وقال هو عليه السلام فى الجواب:﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾[1] ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: "فعلت، أو: لم أفعل".

فإن قلت: أو ليس إذ قال: "أفعلت" فهو يريد أيضاً أن يقرره بأن الفعل كان منه، لا بأنه كان على الجملة، فأى فرق بين الحالين؟.

فإنه إذا قال: "أفعلت؟" فهو يقرره بالفعل من غير أن يردده بينه وبين غيره، وكان كلامه كلام من يوهم أنه لا يدرى أن ذلك الفعل كان على الحقيقة، وإذا قال: "أأنت فعلت؟" كان قد ردد الفعل بينه وبين غيره ولم يكن منه فى نفس الفعل تردد، ولم يكن كلامه كلام من يوهم أنه لا يدرى أكان الفعل أم لم يكن، بدلالة أنك تقول ذلك والفعل ظاهر موجود مشار إليه، كما رأيت فى الآية"[2].

وهذا يعنى أن المقرر به هو ما يلى الهمزة، فإن وليها الفعل كان هو المراد بالتقرير، وإن وليها الفاعل كان هو المراد بالتقرير بأن الفعل كان منه، ولم يكن شك فى الفعل.

وهذا الكلام ذكره سعد الدين التفتازانى فى المطول أيضا. قال: "قد يقال: التقرير بمعنى التحقيق والتثبيت، وقد يقال بمعنى حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه، وإلجائه إليه، وهو الذى

(١) الأنبياء : ٦٣.
(٢) دلائل الإعجاز ١١٣ وما بعدها.

قصده المصنف ههنا بإيلاء المقرر به الهمزة، أى: بشرط أن يلى الهمزة ما حمل المخاطب على الإقرار به كما مر فى حقيقة الاستفهام من إيلاء المسئول عنه الهمزة تقول: أضربت زيداً؟ إذا أردت أن تحمله على الإقرار بالفعل، وأأنت ضربت فى تقريره بالفاعل، وأزيداً ضربت؟ فى تقريره بالمفعول، وكذا أبزيد مررت؟ وأراكباً سرت؟ وغير ذلك؟[1].

وهو يؤكد على أن المقرر به هو ما يلى الهمزة.

فلو قلنا كما ذكر الدكتور/ المطعنى بأنها للتقرير، فإن ما ولى الهمزة هنا هو الفعل المنفى، فيكون المعنى " لم تروا، وهذا غير مقصود.

فبقى أى نقول إن الاستفهام للإنكار: إلا أن الهمزة لما تكون للإنكار – وهو نفى – وتدخل على فعل منفى فيكون المراد إثبات الفعل لأن نفى النفى إثبات. ولعل هذا المعنى هو المراد من كلام المطعنى.

وقد أشار إليه صاحب المطول: قال: "ومنه أى: من مجئ الهمزة للإنكار قوله تعالى: "**أليس الله بكاف عبده**" أى كاف. لأن إنكار النفى نفى له، ونفى النفى إثبات، وهذا المعنى مراد من قال إن الهمزة فيه للتقرير، أى يحمل المخاطب على الإقرار بما دخله النفى، وهو الله كاف، لا بالنفى، وهو: ليس الله بكاف، وهكذا قوله تعالى: "**ألم نشرح لك صدرك**" وقوله "**ألم يجدك يتيما**" وما أشبه ذلك".

(١) المطول، ص٢٣٦.

فقد يقال إن الهمزة للإنكار، وقد يقال إنها للتقرير، وكلاهما حسن[1].

وهذا يعنى أن الإمام الطاهر لما قال إن الهمزة لإنكار عدم الرؤية لم يكن مجانبا للصواب، لأن إنكار العدم وجود.، بدليل أنه قال بعدها: "بتنزيل العالمين منزلة غير العالمين" فأثبت لهم رؤية علمية، إلا أنهم لم ينتفعوا بها. وكان تابعاً فى ذلك للإمام عبد القاهر.

ولما قال الدكتور المطعنى إنها للتقرير: فإنه يتابع بكلامه هذا السكاكى والسعد ومن وافقهما من أن المقرر به لا يشترط أن يكون هو الحكم الذى دخلت عليه الهمزة، وإنما يكون بالذى يعرفه المخاطب من ذلك الحكم إيجاباً أو سلباً، محتجين بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2]؟

قالوا فالغرض ليس تقرير سيدنا عيسى – عليه السلام – بأنه قال ذلك دون غيره، وإنما المراد، هو تقريره بما يعرفه من مضمون هذا الكلام، أى: أنه لم يحدث منه أن قال للناس: اتخذونى وأمى إلهين من دون الله.

وكذلك احتجوا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[3] وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[5].

قالوا: إن الذى ولى الهمزة فى هذه الآيات هو أداة النفى، والتقرير هنا بما بعد النفي، ولو كان التقرير بما ولى الهمزة

(١) المطول ٢٣٧.
(٢) المائدة ١١٦.
(٣) الشرح : ١.
(٤) الضحى: ٦.
(٥) الزمر: ٣٦.

لفسد المعنى، إذ يصبح التقرير "لم نشرح" و "لم يجدك يتيماً" وليس الله بكاف" وهذا غير صحيح، لأنه مخالف للواقع، إذ كان هناك شرح، وإيواء لوجوده يتيماً، وكفاية من الله لعبده.

ويقول سعد الدين :" إن التقرير ليس يجب أن يكون بالحكم الذى دخل عليه الهمزة، بل بما يعرف المخاطب من ذلك الحكم، وعليه قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [١] فإن الهمزة فيه للتقرير أى بما يعرفه عيسى عليه الصلاة والسلام من هذا الحكم، لا بأنه قد قال ذلك"[٢].

وإذا وقفت على هذا فاعلم أن ما ذكره الدكتور المطعنى من تعقيب على ما ذهب إليه الإمام الطاهر غير سديد.

لأنه إذا قيل أن الهمزة للإنكار، فيكون لإنكار الرؤية المنفية، فهو إثبات، أى أنه يثبت لهم رؤية إلا انه يوبخهم لعدم انتفاعهم بعلمهم أن الله يولج الليل فى النهار، ويولج النهار فى الليل، وأنه سخر الشمس والقمر، فى الاستدلال بها على قدرته سبحانه على البعث، وأن بعث الناس كلهم، إنما هو فى حقه كبعث نفس واحدة. وكذلك خلقهم.

وإذا قلنا أن الهمزة للتقرير، فإنه يكون تقرير بمعنى التحقيق والتثبيت، أى: رأيتم إن الله يولج الليل فى النهار، ويولج النهار فى الليل، وسخر الشمس والقمر، وهما أعظم من خلق الإنسان، وبعثه بل من خلق الناس كلهم وبعثهم، فلماذا

(١) المائدة: ١١٦.
(٢) المطول ص ٢٣٧ وما بعدها.

شككتم فى قدرة الله على البعث مع رؤيتكم لما هو أعظم منه واقعاً؟

فكلا الوجهين يمكن حمل المعنى عليه.

وعلى هذا يكون الخطاب "عام لكل أحد ممن يصلح للخطاب، وهو الأوفق لما سبق وما لحق، أى: ألم تعلم علماً قويا جاريا مجرى الرؤية"(١).

وقد جعل المفسرون الرؤية هنا علمية، وهذا يعنى أنها مستعارة للعلم، بجامع الكشف فى كل. وإيثار الرؤية – هنا – إنما هو للإشارة إلى وضوح ذلك العلم بحال الليل والنهار. وتسخير الشمس والقمر وما فى ذلك من دلالة على قدرة الله – عز وجل، وضوحاً يصل إلى حد كأنه يرى بالعين.

وتوكيد الخبر" **أن الله** "بـ"أن" لأن مضمونه حقيقة عظيمة. ومن حق الحقائق العظيمة أن تصاغ فى أساليب فخمة مثلها، فالتوكيد هنا منشؤه هو الكلام نفسه، لا مراعاة حال المخاطب. ولا المتكلم"(٢).

والإيلاج: حقيقته: الإدخال، إلا أنه فيما يكون فيه لطف ويسر،... وهو هنا مستعار لتعاقب ضوء النهار وظلمة الليل. فكأن أحدهما يدخل فى الآخر، لأنك لا تستطيع أن تفصل حد النهار من الليل فهما متعاقبان مع اختلاط أول هذا بآخر ذاك والعكس، ولازدياد مدة النهار على مدة الليل وعكسه، فى الأيام

(١) تفسير أبى السعود جـ٥، ص١٩٣.
(٢) التفسير البلاغى للاستفهام جـ٣، ص٣٥٨.

والفصول، عدا أيام الاعتدال التى يكون فيها النهار مساويا لليل فى المدة الزمنية.

قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ : التسخير حقيقته تذليل ذى عمل شاق، أو شاغل بقهر وتخويف، أو بتعليم وسياسة بدون عوض، فمنه تسخير العبيد والأسرى، ومنه تسخير الأفراس والرواحل، ومنه تسخير البقر للحلب، والغنم للجز، ويستعمل مجازاً فى تصريف الشئ غير ذى الإرادة، فى عمل عجيب أو عظيم، من شأنه أن يصعب استعماله فيه،بحيلة أو إلهام تصريفاً يصيره من خصائصه وشئونه،.. كتسخير الشمس والقمر[(١)].

فإطلاق التسخير - هنا - على الشمس والقمر مجاز، لأنه يراد به - هنا- خضوع الشمس والقمر للنظام الذى خلقهما عليه بدون تغيير، مع أن شأن عظمهما أن لا يستطيع غيره تعالى وضعهما على نظام محدد منضبط.

وتلاحظ - هنا - أنه - سبحانه - قال ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾ و﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ بصيغة المضارع، وقال فى الشمس والقمر: "وسخر" بالماضى لأن إيلاج الليل فى النهار، وإيلاج النهار فى الليل، أمر متجدد كل يوم وكل فصل، فكان التعبير بالمضارع ملائما لذلك. وأما التسخير فلأنه دائم مستمر عبر عنه بالماضي، فإن قلت: أليس إذا قال: "يولج الليل فى النهار" كان دالاً على قدرته سبحانه، فلماذا جمع معها إيلاج النهار فى الليل؟.

قيل: إنما جمع بينهما لإظهار تمام قدرته سبحانه من جهة أنها لا تلزم عملاً متماثلاً.

(١) راجع التحرير والتنوير ص١٦٨، جـ٨، القسم الثانى.

قوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ ، الجرى حقيقة فى المشى السريع، وهو هنا – مستعار لانتقال الشمس فى فلكها، وانتقال القمر حول الأرض التى تنتقل هى الأخرى حول الشمس، وفى التعبير "بالجرى" إشارة إلى شسوع المسافات التى تقطعها الشمس، أو يقطعها القمر فى خلال ذلك.

وإسناد الجرى للشمس والقمر تشخيص لهما فى صورة من يجرى لإدراك أجل، أو للوصول إلى غاية، كما يوحى هذا الإسناد بأن كلا من الشمس والقمر، مدفوع بذاته إلى تلك الغاية، وذلك الهدف، كما يعنى أن الجرى هو سبب عدم سقوط الشمس أو سقوط القمر.

ثم إنه – سبحانه – ألمح إلى نهاية تلك الإجرام السماوية العظيمة والتى قد يعتقد الإنسان أنها لا تفنى – بقوله: "إلى أجل مسمى" أى أن حركة الشمس والقمر، إنما هى للوصول إلى أجل معين، عنده يبطل ذلك التحرك، فيؤذن ذلك بنهاية العالم.

وفيه إشارة إلى البعث الذى يكون عند ذلك الوقت.

وقد عدى الفعل: "يجرى" بـ "إلى" – هنا- مع أنه عدى بـ "اللام" فى قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[1]. وقيل بأن السرفى ذلك هو أن اللام تكون بمعنى "إلى" فى الدلالة على الانتهاء[2].

(١) فاطر: ١٣.
(٢) ذكره ابن هشام فى مغنى اللبيب جـ١، ص٢١٢.

وهذا الكلام رفضه الزمخشرى ورده أغلظ رد. قال: "فإن قلت: يجرى لأجل مسمى، ويجرى إلى أجل مسمى: أهو من تعاقب الحرفين؟

قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن. ولكن المعنيين أعنى الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض، لأن قولك يجرى إلى أجل مسمى: معناه يبلغه وينتهى إليه. وقولك: يجرى لأجل مسمى: تريد يجرى لإدراك أجل مسمى، تجعل الجرى مختصا بإدراك أجل مسمى، ألا ترى أن جرى الشمس مختص بآخر السنة، وجرى القمر مختص بآخر الشهر، فكلا المعنيين غير ناب به موضعه"(١).

وللخطيب الإسكافى إشارة فى اختصاص الآية هنا - "بإلى" وفى سورة الزمر "باللام" فى قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾(٢).

يقول: إن معنى قوله: "يجرى لأجل مسمى" يجرى لبلوغ أجل مسمى، وقوله: "يجرى إلى أجل" معناه لا يزال جارياً حتى ينتهى إلى آخر وقت جريه، المسمى له، وإنما خص ما فى سورة لقمان بإلى التى للانتهاء، واللام تؤدى نحو معناها. لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى، لأن الآيات التى تكتنفها، آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة، فقبلها:﴿ مَّا

(١) الكشاف جـ٣ ص ٤٨٦، ٤٨٧.
(٢) الزمر : ٥.

خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[1]. وبعـــدها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾[2].

فكان المعنى كل يجرى إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذى تكور فيه الشمس، وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى.

وسائر المواضع التى ذكرت فيها اللام، إنما هى للإخبار عن ابتداء الخلق، وهو قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[3].

فالآيات التى تكتنفها، فى ذكر ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء جرى الكواكب، وهى إذ ذاك تجرى لبلوغ الغاية، وكذلك قوله فى سورة الملائكة، إنما هو فى ذكر النعم التى بدأ بها فى البر والبحر إذ يقول: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ ﴾[4] إلى قوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾[5].

---

(١) لقمان: ٢٨.
(٢) لقمان: ٣٣.
(٣) الزمر : ٥، ٦.
(٤) فاطر : ١٢.
(٥) فاطر: ١٢، ١٣.

فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها، واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التى يقع الفعل من أجلها[١].

الحق سبحانه لما ذكر قدرته الباهرة، بذكر حال الليل والنهار فى المعاقبة بينهما، وعطف عليه تسخير الشمس والقمر، على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للإفهام، قادر على الخلق والإحياء والإماتة، ثم هو فوق ذلك خبير بما نعمل. ختم الآية بقوله: "وأن الله بما تعملون خبير". وذلك للإشارة إلى أن الليل والنهار لما كانا محلاً للأفعال، بين بقوله "وأن الله بما تعملون خبير"، أن ما يقع فى هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى عليه شيء منه.

قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[٢].

"**ذلك**" إشارة إلى ما تضمنته الآيات السابقة، وبينته من سعة علمه سبحانه وتعالى وكمال قدرته، التى تجلى أثرها فى قدرته على خلق الناس وبعثهم، وأن ذلك كنفس واحدة فى السهولة واليسر، وفى إيلاج الليل فى النهار، وإيلاج النهار فى الليل، وتسخير الشمس والقمر، ومن كونه – سبحانه – هو وحده القادر على ذلك كل هذا سببه أنه هو الحق الثابت ألوهيته. وأن من دونه باطل الإلاهية.

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل فى بيانات الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز، لأبى عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافى، ط: دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ص٢٠٩.

(٢) لقمان: ٣٠.

والمعنى أن ما سبقت الإشارة إليه مسبب عن انفراده – سبحانه – بالألوهية، فالباء للسببية.

ويجوز أن يكون المعنى: ذلك، أى ما تلى من الآيات الكريمة، بسبب بيان أن الله هو الحق- إلهيته فقط ولأجله، ولكونها ناطقة بحقيقة التوحيد، ولأجل بيان بطلان إلاهية ما يدعون من دونه، لكونها شاهدة شهادة بينة لا ريب فيها، ولأجل بيان أنه تعالى هو المرتفع على كل شيء، المتسلط عليه، فإن ما فى تضاعيف تلك الآيات، مبين لاختصاص العلوم والكبرياء به أى بيان[1].

والحق: نقيض الباطل، وهو من أسماء الله عز وجل، وقيل من صفاته، قال ابن الأثير: هو الموجود حقيقة، المتحقق وجوده وإلاهيته[2].

فكانت قدرته – سبحانه – على خلق الناس، وبعثهم، وإحاطة علمه بالأشياء ظاهرها وباطنها، وإيلاج الليل فى النهار، وإيلاج النهار فى الليل، وتسخير الشمس والقمر، بسبب أن الله هو الحق، الثابت إلاهيته، الذى إذا أراد فعل وقدر. وأن كل ما يُدعى إلاهاً دونه باطل الدعوة، أو أن ما سبق وأشير إليه، لأجل بيان أن الله هو الحق الثابت إلاهيته، فهو على تقدير مضاف محذوف.

وهذا فيه إلماح إلى أن ما دون الله ليس بحق، وغير ثابت الألوهية، وبالتالى لا يقدر، ولا يحيط بشيء، قدرة الله وإحاطته، فالقصر فيه قصر حقيقى.

(١) روح المعانى م١١ ط٢، ص١٠٣.
(٢) لسان العرب مادة (حقق).

ولما كان للمعنى – هنا – ما له من الفخامة والروعة. ذلك لأنه يوحى بتفرده سبحانه بالكمال والقدرة على الخلق والإبداع، وتصريف شئون الكون بما فيه، بحكمة واقتدار، وأن ما عداه ممن ادعيت إلهيته لا حظ له من ذلك ولا نصيب، لأنه لا يقدر من أمور نفسه على شيء، فعدم قدرته على ما سواه أولى.

أقول لما كان الأمر كذلك، ناسبه وضع الظاهر – وهو لفظ الجلالة – موضع الضمير، فبدلاً من أن يقول: ذلك بأنه هو الحق قال: "ذلك بأن الله هو الحق"، وما فى اسم الإشارة من معنى البعد، للإيذان بأن خلق الناس وبعثهم، والإحاطة بكل أمورهم، وإيلاج الليل فى النهار، وإيلاج النهار فى الليل. وتسخير الشمس والقمر، إنما هى من الأمور العظيمة، التى لا يقدر عليها إلا من تفرد بالألوهية، وحاز كل كمال، وتنزه عن كل نقص.

إضافة إلى ما يوحى به أسلوب القصر من توكيد، يناسب ما عليه المعنى والمضمون، من قوة، وصدق، وإلا فكل الدلائل والشواهد ناطقة بمضمونه، فلا ينكرها إلا جاحد أو مختل.

ثم إنك تلاحظ فى المقابل، أى فى مقابل الجهر بالحق. والحقيقة فى هذا الأسلوب المؤكد قوله: " وأن ما تدعون من دونه الباطل" خافت النبرة، وكأنه يوحى بانزواء الباطل، وأن كل شاهد على استحقاقه – سبحانه– للربوبية هو شاهد على أن ما عداه باطل، ولذلك لم يكن بحاجة إلى تأكيد بضمير الفصل، كما فى قوله: "هو الحق" مما يشير إلى إهماله. وأنه غير جدير بأن يلتفت إليه.

ثم تامل قوله: "**ما تدعون**" وكيف عدل إلى الموصول وصلته، تجنبا لذكر أصنامهم، أو أسماءها، مما يؤكد على حقارتها، وأنها صارت بحيث يكنى عنها ولا يصرح بها لخبثها، إضافة إلى ما تفيده صلة الموصول من كونهم يدَّعون لها الألوهية بكل ما تعنيه، مما يدل على غبائهم.

أمر آخر يوحى به مجئ ضمير الفصل فى قوله: "**هو الحق**" وخلو الكلام منه فى قوله: **ما تدعون من دونه الباطل**" وهو أن مجئ الضمير فى الأولى، لتأكيد القصر، لأن الحق واحد، وأما الباطل فله أشكال كثيرة، لا تقتصر فقط على ما كان يدعوه هؤلاء الناس من دون الله، ولكن ما يدعوه غيرهم أيضاً باطل.

وإنما جئ به فى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾[1] لأن المقام هناك مقام مناضلة[2] وتوعد حيث سبقه قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[3].

(١) الحج: ٦٢.
(٢) انتضل القوم وتناضلوا أى: رموا للسبق، ومنه قيل: انتضلوا بالكلام والأشعار، وناضلت عنه نضالاً: دافعت، وفلان يناضل عن فلان: إذا نصح عنه وداقع. اللسان مادة: ن ض ل
(٣) الحج: ٦١،٦٠.

فهو وعد من الله للمسلمين بالنصر، ووعيد لمن دونهم بالهزيمة، واستدلال عليه، بأن القادر على تغليب النهار على الليل، حيناً وتغليب الليل على النهار حيناً آخر، بما يتطلبه ذلك من القدرة، قادر على تبديل حال المسلمين، من الضعف إلى القوة، والهزيمة إلى النصر، وحال المشركين، من القوة إلى الضعف، ومن النصر إلى الهزيمة. وكان من المناسب لذلك التأكيد على أن ما يعبده المسلمون ويوحدونه هو الحق. وأن ما يعبده المشركون، ويرجون نصره، هو الباطل، فيكون مجئ الضمير فيه من أجل المبالغة، وليس لأن ما يعبده المشركون فى مكة هو الباطل فحسب، وأن ما يعبده غيرهم حق، وإلا فقد سبق قصره على الله سبحانه.

وأما سياق الحديث فى الآيات التى بين أيدينا، فيوحى باختلاف المقام، لأنه أراد التأكيد - هنا - على اختصاصه - سبحانه - بالربوبوبية،والإلاهية،بدليل قدرته على الخلق والإيجاد والبعث وتصريف أمور الكون كيف يشاء، وأن ما عداد باطل. سواء فيه ما كان يعبده المشركون فى مكة أو فى مكان آخر.

ولما كان خلق الناس وبعثهم، وإيلاج الليل فى النهار. وإيلاج النهار فى الليل،دال على أن الله هو الحق الثابت إلاهيته. وأن ما عداد باطل، ثبت أيضاً به اختصاص الحق - سبحانه - بالعلو والعظمة، وسلبها عن كل ما سواه قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وقد صيغت الجملة هنا، بنفس الطريقة التى صيغ بها قوله: "**بأن الله هو الحق**" من مجيئها مؤكدة، بـ "أن" ووضع

الظاهر موضع المضمر، واجتلاب ضمير الفصل " هو" وتعريف "العلى"، و"الكبير".

وهما صفتان تثبتان لله – سبحانه وتعالى – كل عظمة واستعلاء، وتنزهه عن كل نقص، فـ"العلى" لا يراد بها العلو الحسى، وإنما هى مستعارة للجلال، والكمال التام أى هو العلى دون الأصنام التى تعبدونها، إذ ليس لها كمال ولا جلال، بدليل أنها لم تخلق شيئا، ولا تقدر على شئ، فهى مجاز عن العزة التامة، بحيث لا يستطيع موجود أن يغلبه أو يكرهه على شئ، كما تعنى تنزيهه – سبحانه – عن كل نقص.

ووجه المجاز فيها أن يقال: شبه التحاشى عن النقائص بالارتفاع والعلو، ذلك أن الشيء المرتفع لا تلتصق به الأدران والأوساخ، التى من شأنها أن تكون مطروحة على الأرض. وكما شبه النقص بالسفالة والدنو، شبه – هنا – الكمال، والعزة، والجلال، بالعلو فقيل: "هو العلى".

وأما قوله: "الكبير" فهو مجاز – أيضاً – عن العظمة، فالكبير: العظيم الشان الذى كل شئ دونه، فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس، وقد شاع ذلك، أى استعمال "الكبير"، وغيره من الألفاظ الدالة على الكبر، والإحاطة، والترفع، والعزة فى التعبير عن تلك المعانى حتى صارت كالحقيقة فيما استعملت فيه.

المبحث الثالث
من مظاهر كرمه ورحمته سبحانه وتعالى

قولـه تعـالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(١).

وهـذه الآية بما فيها من إشـارة إلـى قـدرة الله. وبديـع صنعته – وقـد سبـقت بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٣).

دليل ثالث على عظيم حكمة الله، فى نظام هـذا العـالم. وتوفيق البشر للأخذ بما هيأه الله من أسباب تمكنهم من الانتفاع به. رحمة منه وكرما.

---

(١) لعمان: ٣١.
(٢) لقمان: ٢٠.
(٣) لقمان : ٢٩.

لأنه لما سبقت الإشارة إلى تسخير الله ما فى السموات والأرض، من شمس، وقمر، ونجوم، وسحب، وإيلاج الليل فى النهار، وتسخير ما فى الأرض، من جبال، وأشجار ودواب، وأنها دليل وبرهان على قدرة الحق المطلقة، وعلمه المحيط، مما يستلزم تفرده بالربوبية، وأنه هو الحق، جاءت هذه الآية لتستدل بخلق البحار، وتسخيرها بحيث تمكن الإنسان من الانتفاع بها، على بديع صنع الله، وحكمته، بل ولطفه ورحمته بعباده.

"فخلق البحر على هذه الصفة العظيمة، ميسراً للانتفاع بالأسفار فيه، حين لا تغنى طرق البر فى التنقل غناء، فجعله قابلاً لحمل المراكب العظيمة، وألهم الإنسان لصنع تلك المراكب، على كيفية تحفظها من الغرق فى عباب البحر، وعصمهم من توالى الرياح والموج فى أسفارهم، وهداهم إلى الحيلة من مصانعتها إذا طرأت حتى تنجلى"(١).

فضلاً عن انتفاعهم بما تحويه بداخلها من صيد، وغيره مما يتخذ للحلى والزينة. هو من الآيات الدالة على قدرته وحكمته ولطفه.

و"الفلك": السفينة، تذكر وتؤنث، وتقع على الواحد والاثنين والجمع، قال الله تعالى فى التوحيد والتذكير: ﴿ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾(٢) فذكر الفلك وجاء به موحداً، ويجوز أن

(١) التحرير التنوير جـ١، ص١٨٩.
(٢) يس: ٤١.

يؤنث واحده كقوله تعالى:﴿ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾[١] فقال جاءتها فأنث، وقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾[٢]. فجمع، وقال: ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ ﴾[٣]. فأنث ويحتمل أن يكون واحداً وجمعاً، قال تعالى:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾[٤]. فجمع وأنث فكأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المركب فيذكر، وإلى السفينة فيؤنث[٥].

و"**النعمة**": مفرد، وجمعها: نعم، وأنعم، وتطلق على كل ما أعطاه الله العبد، مما لا يمكن غيره أن يعطيه إياه. ويقول الراغب: "والنعمة للجنس، يقال للقليل والكثير"[٦].

والكلام فى الاستفهام كالكلام فى قوله:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ﴾ .. الآية[٧].

والتعبير بالفعل المضارع "**تجرى**"، للدلالة على تجدد جرى الفلك الذى لا يتوقف، وقوله: "فى البحر" إشارة إلى مظهر التسخير وهو الجرى فى البحر، أى على سطح الماء. حالة

---

(١) يونس: ٢٢.
(٢) النحل : ١٤.
(٣) البقرة: ١٦٤.
(٤) يونس : ٢٢.
(٥) اللسان مادة: فلك.
(٦) المفردات فى غريب القرآن – للراغب الأصفهانى، ط: المكتبة التوفيقية – القاهرة.
(٧) لقمان : ٢٩.

كونها حاملة ما يعجز الإنسان عن حمل أو نقل مثله فى البر، فالفلك ليس لها من ذاتها إلا الرسوب فى الماء لكثافتها ولطافته، ومع ذلك تجرى على وجه الماء برحمة الله، حيث خلق ماء البحر بنظام، وخلق الخشب بنظام، وعلم الناس صنعها حتى صارت مهيئة للجرى على الماء وكان أول ذلك على يدى نوح عليه السلام.

وقوله: "بنعمت الله" "يحتمل أن يراد به كل ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والتجارات، ويحتمل أن يراد به: الريح، وتسخير الله البحر، ونحو هذا. فالباء باء السبب"(١).

وأفردت "النعمة" لتعظيمها، وكان حقها أن تجمع، لكن إيقاع المفرد هنا موقع الجمع له دلالته البلاغية، فإضافة النعمة إلى الله – تعالى– "تكسوها ثوباً من التعظيم، مما يجعل تذكر واحدة منها، كافياً فى أن يخر المنعم عليه ساجداً لربه، شكراً عليها، فكيف بتذكر نعمه كلها أو بعضها؟

كما يومئ الإفراد إلى أن الإنسان مهما أطاع ربه، وانقطع له، وأوغل فى عبادته لا يستطيع أن يؤدى حق الشكر على نعمة واحدة إذ أن التوفيق للطاعة والعبادة، هو فى حد ذاته نعمة تستدعى الشكر عليها، وأين الإنسان من معرفة كل ما أنعم الله تعالى عليه، وهو يجهل من نعم الله فى نفسه أكثر مما يعلم حتى يمكنه الشكر على كل النعم"(٢).

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية جـ٤، ص٣٥٥.

(٢) الإعجاز البياني فى صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع فى القرآن د/محمد الأمين الخضري، ص٧٩.

وهذا ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أى علة جريها فى البحر أن يريكم الله بعض آياته، فهو "تعليل جزئى لا كلى، لأن الله جعل البحر، مساوراً[1]، للفلك للإنعام على عباده، وليتأملوا هذا الصنع الرائع، ولما كان جانب الإنعام ظاهراً للناس، وقد يلهيهم عن التدبر والاعتبار، طوى ذكره، ونبه على الجانب المهمل ليذكرهم به لكى يتخذوا من ذلك عبراً وعظات لتقوية إيمانهم وشكرا لله على تلك النعم.

فجرى الفلك فى البحر له علتان: الإنعام على الناس. وتيسير أمور معاشهم وأسفارهم.

ثم يكون ذلك الجرى من دقيق صنع الله وبديع تدبيره. فاقتصرت الآية على ذكر العلة الثانية، لأنها عرضة للإعراض عنها، وطوى ذكر الأولى لشدة الإحساس بها وهكذا ترى فى النظم الحكيم أسراراً ودقائق، هى وجوه الإعجاز فيه"[2].

والمعنى: ليريكم من "عجائب قدرته، ودلائله التى تدلكم على أنه الحق، الذى أثبت بوجوب وجوده، ما ترون من الأحمال الثقال على وجه الماء، الذى ترسب فيه الإبرة فما دونها.

ولما كان هذا أمرا إذا جرد النظر فيه – عن كونه قد صار مألوفا – بهر العقول، وحير الفهوم، أشار إليه بقوله مؤكداً، تنبيها مما هم فيه من الغفلة عنه، لافتا الخطاب بعد الجمع إلى الإفراد تنبيهاً على دقة الأمر وأنه – وإن كان يظن

---

(١) أى جعله بحيث يمكن للفلك أن تتحرك فيه، وتطفو على سطحه. فالمساورة: يقال: ساوره: واثبه، والسورة: الوثبة، وتسورت الشيء أى: علوته.

(٢) التفسير البلاغى للاستفهام جـ٣، ص٢٦٢.

أنه ظاهر – لا يفهمه حق فهمه"[1] إلا كل صبار شكور: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

فالإشارة فيه إلى جرى الفلك فى البحر بما يتضمنه ذلك من تسخير البحر، وتهيئة الأسباب للإنسان، حتى استطاع أن يصنع الفلك التى تجرى فى البحر بنعمت الله.

وما فيه من معنى البعد إنما يشير إلى بديع صنع الله فى هذا الشأن، وأنه من أكبر الدلائل، وأعظم الآيات على وحدانيته وربوبيته.

والآيات: "هى الدلالات الواضحات على ما يتصف به الحق – سبحانه – من صفات الكمال، فى عدم غرقه، وفى سيره إلى البلاد الشاسعة، والأقطار البعيدة، وفى كون سيرة ذهاباً وإياباً تارة بريحين وأخرى بريح واحدة، وفى غير ذلك من شئونه وأموره وفنونه"[2].

غير أن هذه الآيات لا ينتفع بها إلا كل ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

وقد جاء قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ مفصولاً عما قبله، لأنه واقع موقع التعليل لحقوله: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ فله موقع الاستئناف البيانى إذ يخطر ببال السامع أن يسأل: كيف لم يهتم المشركون بهذه الآيات، فأفيد أن الذى ينتفع بدلالتها على مدلولها هو "**كل صبار شكور**"[3].

(١) نظم الدرر جـ٦، ص٣٤.
(٢) نظم الدور جـ٦، ص٣٤.
(٣) التحرير والتنوير جـ٢١، ١٨٩.

ففيه من التعريض بهذا الفريق الذى لم ينتفع بدلالة جرى الفلك فى البحر، وتسخير الشمس والقمر، وغير ذلك من الآيات على وحدانية الحق ووجوده.

ولما كان جرى الفلك فى البحر بعد تهيئ الحق أسبابه من خلق ماء البحر بنظام معين، وخلق الخشب بنظام، وتعليم الله للإنسان صناعتها.

مما كان نتيجته جرى الفلك فى البحر بما لا قبل للإنسان بنقل مثله أو حمله فى البر، جعل ذلك عدة آيات، وإن كان يظهر أن الجري آية واحدة،ولكن لعظمتها، ولاعتماد الجرى على أسباب كثيرة جعله عدة آيات، فهى آيات إما بالنظر إلى تعدد أسبابها، أو بالنظر إلى عظمتها التى تجعلها كأنها آيات كثيرة، فلذلك جمع وقال: "إن فى ذلك لآيات".

"والصبار": مبالغة فى الموصوف بالصبر، والشكور كذلك، أى الذين لا يفارقهم الوصفان. وهذان وصفان للمؤمنين الموحدين فى الصبر للضراء والشكر للسراء، إذ يرجون بهما رضى الله تعالى، الذى لا يتوكلون إلا عليه فى كشف الضر، والزيادة من الخير، فهم بين رجاء الثواب، وخوف العقاب، لأنهم آمنوا بالحياة الخالدة ذات الجزاء، وعلموا أن مصيرهم إلى الله الذى أمر ونهى، فصارا لهم خلقاً تطبعوا عليه فلم يفارقهم البتة إلا نادراً، فأما المشركون فنظرهم قاصر على الحياة الحاضرة فهم أسراء العالم الحسى، فإذا أصابهم ضر ضجروا وإذا أصابهم نفع بطروا، فهم أخلياء من الصبر والشكر.

فلذلك كان قوله تعالى : ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كناية رمزية عن المؤمنين وتعريضاً رمزياً بالمشركين[1].

وإيثار ذكر هاتين الصفتين – هنا- لمناسبة المقام لهما، لأن ركوب البحر مما تخشاه النفوس وتضطرب فيه، وبخاصة إذا هبت ريح أو علا موج، كما أن إدامة الفكر فى هذه النعم، واستحضار الإنسان لها فى الرخاء قبل الشدة، وإقراره بأنها من الله، وأنه لا يقدر عليها سواه، إنما يناسبه "الصبار"، "الشكور" فاعترافه بفضل الله بعد خروجه من البحر، وإدامة الفكر فى هذه النعم إنما يبعثه على الشكر. فكأن الصفتين هنا متلازمتين، ولا تغنى إحداهما عن الأخرى، ولذلك لم يؤت بينهما بحرف عطف.

****

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[2].

لما ذكر سبحانه فى الآية السابقة، أن جرى الفلك فى البحر بنعمة الله، وكان بعض علته أن يرى الله – سبحانه – من آياته ما يعتبر به كل صبار شكور، ذكر فى هذه الآية ما يكون عليه الناس عندما يغشاهم الموج المرتفع المتراكم، من إخلاص لله، وتوجه إليه بالدعاء والتضرع لينجيهم من تلك الشدة، وأنه

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٩٠.
(٢) لقمان: ٣٢.

إذا استجاب لهم دعاءهم ونجاهم إلى البر، يكون منهم "مقتصد" وجاحد.

وفيه إشارة إلى ما طبع عليه صنف من الناس، يذكرون الله عند الشدة، ويخلصون له، وعند الرخاء والسلامة تراهم غافلون. وفيه إلماح إلى ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن، من ثبات واستقرار على إخلاصه لله فى كل وقت وحين،وعلى كل حال.

وإنما خص هذه الحال، حال ما يغشاهم الموج، لأن أسفار القوم جلها كانت بالبر، وكانوا لا يعتريهم فيها خوف، وإن اعتراهم، فهو لا يعم جميع السفْر، لأنهم كانوا يسافرون فى قوافل، يحتمون بسلاحهم، ويسيرون فى سبل يألفونها، فأما سفرهم فى البحر لما كان نادراً فإنهم كانوا يفرَقون من أهواله كالأمواج، والظلام، وعدم وضوح السبيل،وشدة الرياح، وتوقع المكروه فى كل وقت، ثم إن ذلك لا يدفعه عنهم سيف ولا رمح، ولا شجاعة أو إقدام، ولا وفرة عدد، لذا كانوا يضرعون إلى الله ويخلصون"، وبخاصة إذا غشيهم موج مرتفع.

ففيه استعارة التغشية: لارتفاع الموج وعلوه، بحيث يصير كالمغطى لهم، لأنه يمنعهم بعلوه وارتفاعه من أن تمد أبصارهم كما كانت. فكأنه غشاهم أى غطاهم وركبهم، وتراكم عليهم، يقول أبوعبدالله الدامغانى: غشيهم: ركبهم، وتراكم عليهم، كما فسرها بـ "العلو" و "التغطية"[1].

(١) الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز لأبىعبد الله الحسين بن محمد الدامغانى جـ٢، ص٩٦ ت محمد حسن أبوالعزم. ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

ولما كان ركوب البحر عزيزاً، أى لأنه ربما قضى الإنسان عمره لا يركب البحر، فهو لا يرى صورة الموج المرتفع، الذى يعلو فوق السفن كأنه يغطيها، ويمنع العين من رؤية ما خلفه، كانت تلك الصورة كأنها غير مألوفة له، فزادها وضوحاً وبياناً بقوله سبحانه: "كالظلل" ومفرده "ظله" وهى: ما سترك من فوق، والظلال ما أظلك من سحاب ونحوه.

فشبه الموج – وهو ما ارتفع من الماء فوق الماء وعلا – بالظلل فى الارتفاع والعلو، فكأن ارتفاع الموج هنا لا يمنع العين رؤية ما وراءه فحسب، بل إنه لشدة علوه وارتفاعه، والتفافه فوق رؤوسهم، ليحجب عنهم ضوء الشمس كما تفعل الظلة، إذا أنها تحجب الشمس.

واستخدم "كأن" يوحى بشدة الشبه القائم بين الظلة التى تعلو رأس الإنسان فتحجب عنه الشمس إلا أنها لا تسقط فوقه وبين ذلك الموج العالى المرتفع، إذا أنها لا تستخدم إلا حين يقوى الشبه بين الطرفين، إلى حد لا يستطيع الناظر أن يفرق فيه بينهما، كما فى قوله تعالى على لسان بلقيس وقد جئ بعرشها. "**قالت كأنه هو**"

تأمل ما تبثه حالة الموج العالى المرتفع من خوف وهلع، واضطراب، وكيف أن المرء يكون بين خوف من الهلاك يراد محققاً ولا يملك دفعه عن نفسه، وأمل فى نجاة لا يملك أسبابها، فلا يكون له إلا الحق يلجأ إليه ضارعاً. راجياً أن ينجيه إلى البر.

ثم تأمل ما يوحى به الأسلوب من غفلة الإنسان، وكيف أنه لا يدعو ربه إلا إذا غشيه ذلك الموج.

وقد فهم ذلك من مجئ "إذا" الشرطية، فى بداية الآية، فكأن الجواب لا يقع إلا بوقوع الشرط، وهو غشيان الموج لهم. فإن دعاءهم والحال كذلك يكون محققا، ولجوؤهم إلى الله يكون مؤكداً. ثم إن هذا الدعاء يكون مصحوباً بإخلاص تام لله سبحانه، واعتراف كامل بأن الله هو الحق المستحق للطاعة، يوضحه قوله: "له الدين" أى الطاعة.

أى أنهم دعوا لله حالة كونهم مخلصين، ومقرين بأن الله وحده، الجدير بالطاعة والعبادة، لأنه وحده هو الذى يملك أسباب نجاتهم.

يقول الإمام البقاعى: " ولما كان القتل بالسيف أسهل عندهم من أن يقال عنهم: إنهم أقروا بشئ هم لهم منكرون، لأجل الخوف، خوف السبة بذلك، والعار حتى قال من قال: لولا أن يقال إنى ما أسلمت إلا جزعاً من الموت، فيسب بذلك بنى من بعدى لأسلمت.

بين لهم – سبحانه – أنهم وقعوا فى ذلك بما فعلوا عند الغرق، وأعجب منه رجوعهم إلى الكفر عند الإنجاء، لما فيه من كفران الإحسان، الذى هو عندهم من أعظم الشنع" قال:

﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ أى: أنه – سبحانه قد استجاب لهم ونجاهم إلى البر، فلما نجاهم انقسموا فمنهم مقتصد فالفاء فى قوله: "فمنهم مقتصد" دالة على المحذوف وهو : انقسموا.

والمقتصد: القصد: استقامة الطريق، قصد يقصد قصداً فهو قاصد، وطريق قاصد: رجل مستقيم، والقصد فى الشئ:

خلاف الإفراط، وهو ما بين الإسراف والتقتير، واقتصد فلان فى أمره: استقام[1].

فكأن المقتصد: هو فاعل القصد والمعنى: فمنهم: سالك القصد أى الطريق المستقيم، لا يعدل عنه لغيره. وأصله: استقامة الطريق، ثم أطلق عليه مبالغة، والمراد بالطريق المستقيم: التوحيد مجازاً، فكأنه قيل: فمنهم مقيم على التوحيد[2]. وقال الحسن: منهم مؤمن يعرف حق الله فى هذه النعم"[3].

وقيل: "مقتصد" أى: متوسط فى الإخلاص الذى كان عليه فى البحر، فإن الإخلاص الحادث عند الخوف قلما يبقى لأحد عند زواله.

وأيا ما كان، فالظاهر أن المقابل لقسم المقتصد محذوف دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[4].

وذكر الطاهر بن عاشور أن "المقتصد" هو: "الفاعل للقصد، وهو: التوسط بين طرفين، والمقام دليل على أن المراد: الاقتصاد فى الكفر لوقوع تذييله بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ ولقوله تعالى: فى نظيره فى سورة العنكبوت ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[5].

---

(١) اللسان مادة: قصد.
(٢) روح المعانى م١١ جـ٢١، ص١٠٣.
(٣) المحرر الوجيز لابن عطية جـ٤، ص٣٥٥.
(٤) روح المعانى م١١، جـ٢١ ص ١٠٤.
(٥) العنكبوت : ٦٥.

ثم أشار إلى أنه قد يطلق على الذى يتوسط حاله بين الصلاح وضده، كما قال تعالى: ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾(١)(٢).

وكلام الإمام البقاعى يشير إلى أن "المقتصد" هو المقابل للجاحد.

يقول: "دل ذكر المقتصد أولا على "ومنهم جاحد" ثانياً، وحصر الجحود فى الكفور ثانياً، على حصر الاقتصاد فى الشكور أولاً"(٣).

ولهذا جعل الآية من " الاحتباك"، وهو من ألطف أنواع البديع وأبدعها، وقد ذكره الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى عند حديثة عن الحذف، وفوائده وأسبابه،وأدلته، وشروطه، وأقسامه، وذكر منها "الاحتباك" إلا أنه سماه: "الحذف المقابلى" وعرفه بقوله:

"أن يجتمع فى الكلام متقابلان فيحذف من واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه، كقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾(٤).

---

(١) المائدة ٦٦.
(٢) التحرير والتنوير جـ٢١، ص:١٩١.
(٣) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور جـ٦، ص٣٦.
(٤) هود: ٣٥.

الأصل فإن افتريته فعلى إجرامى وأنتم برآء منه،وعليكم إجرامكم وأنا برئ مما تجرمون، ومنه قوله تعالى:﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[1] تقديره: إن أرسل فليأتنا بآية كما أرسل الأولون فأتوا بآية[2]. وذكره الإمام جلال الدين السيوطى وسماه الاحتباك. وعرفه بقوله: "هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [3] .

والتقدير: ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذى ينعق والذى ينعق به، فحذف من الأول الأنبياء لدلالة "الذى ينعق" عليه، ومن الثانى الذى ينعق به لدلالة "الذين كفروا" عليه[4].

والجاحد الكفور" هو: المفرط فى الكفر والجحود. "والختار": الختر: شبيه بالغدر والخديعة، وقيل: هو الخديعة بعينها، وقيل: أسوأ الغدر وأقبحه وختر يختر فهو خاتر. وختار للمبالغة.

---

(١) الأنبياء: ٥.

(٢) البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى: ص١٤٤، ١٤٥، جـ٣، دار الكتاب العلمية بيروت. لبنان.

(٣) البقرة: ١٧١.

(٤) الإتقان فى علوم القرآن جـ٢، ص١١٩ ط بيروت.

والمعنى: ما يجحد بآيات الله ويكفر بها إلا كل غدار أشد الغدر، لأن كفره نقض للعهد الفطرى بينه وبين الله، وقيل لأنه نقض للعهد الذى عاهدوا عليه ربهم عندما كانوا فى البحر، وغشيهم الموج فعاهدوه على الإخلاص والطاعة له وحده إن هو أنجاهم، فكان كفرهم بعد إنجاء الله لهم غدر وجحود. وصيغتا المبالغة هنا – "ختار" بوزن "فعال"، و"كفور" بوزن "فعول" تنبئان عن شدة الغدر، وعظيم الكفر، ذاك لأنه نقض لعهد دعا إليه العقل، وحض عليه الخوف من الهلاك، وكفر بفضل وإحسان من يتقلبون فى نعمه السابغة، التى لا تحصى ولا تعد، والتى لا نعمة منها إلا وهى من عند الله.

****

المبحث الرابع
الدعوة إلى تقوى الله ـ سبحانه وتعالى ـ والاستعداد ليوم القيامة

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾[1].

"اتقوا" يقال: وقيت الشئ أقية إذا صنته، وسترته عن الأذى، ووقاه: صانه، ووقاد: حماد.، وتوقى واتقى بمعنى، وقد توقيت واتقيت الشئ: حذرته، والاسم: التقوى[2].

"ربكم" رب كل شئ مالكه ومستحقه، وقيل: صاحبه، والله سبحانه وتعالى هو رب كل شئ، لا شريك له. والرب يطلق فى اللغة على: المالك، والسيد، والمدبر والمربى،والقيم. والمنعم، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله عز وجل، وإذا أطلق على غيره أضيف فقيل: رب كذا[3].

"واخشوا" الخشية: الخوف، وخشى الرجل يخشى خشية أى: خاف. وقد تكون بمعنى: الرجاء[4].

---

(١) لقمان: ٣٣.
(٢) راجع اللسان مادة: (وقى).
(٣) راجع اللسان مادة (ربب)
(٤) راجع اللسان مادة خشى

يجزى: الجزاء: المكافأة على الشئ، جزاه به وعليه، والجزاء يكون ثواباً وعقاباً، والجزاء: القضاء، قال الأزهرى: ومعنى قوله تعالى:﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾[١].

يعنى يوم القيامة لا تقضى فيه نفس عن نفس شيئاً، وقيل: لا تجزى: أى: لا تغنى، وأجزى الشئ عن الشئ: قام مقامه ولم يكف[٢].

"الغرور" يقال: غره يغره غرا، وغروراً فهو مغرور وغرير: خدعه وأطمعه بالباطل، والغرور: ما غرك من إنسان وشيطان وغيرهما.

وقيل: هو الشيطان خاصة، يغر الناس بالوعد الكاذب والتمنية[٣].

والحق سبحانه وتعالى – لما تحدث عن خلق السموات بغير عمد، وإلقاء الرواسي فى الأرض، وإنزال الماء من السماء، مؤكداً على تفرده بذلك، وعدم وجود شريك له، مشيراً إلى إحاطة علمه بما لطف ودق فى السموات والأرض، وقدرته على الإتيان به، وأن خلق الناس وبعثهم إنما هو من السهولة واليسر بمنزلة خلق النفس الواحدة وبعثها، مستدلاً على ذلك بقدرته على إيلاج الليل فى النهار، وإيلاج النهار فى الليل، وتسخير الشمس والقمر، وإجرائه الفلك فى البحر بنعمته.

---

(١) البقرة: ٤٨.
(٢) راجع اللسان مادة جزى
(٣) راجع اللسان مادة/ غرر.

ولما كان الناس إزاء هذه الدلائل والبراهين الساطعة، قد انقسموا إلى مؤمن صبار شكور، وجاحد ختار كفور، توجه – سبحانه – إلى الفريقين مناديا بقوله "يأيها الناس".

"فموقع هذه الآية بعد ما تقدمها من الآيات، موقع مقصد الخطبة بعد مقدماتها، إذ كانت المقدمات قد هيأت النفوس إلى قبول الهداية والتأثر بالموعظة الحسنة"(١).

وتصدير الآية – هنا- بالنداء إنما يعنى أن ما سيأتى بعده من أمر ونهى، هو من الأهمية بمكان، وأنه غير مختص فى فائدته وآثاره بفئة دون فئة، أو جماعة دون جماعة. أو زمن دون زمن، وإنما يتجاوز ذلك ليعم كل الناس فى كل وقت ومكان.

كما أنه ينبه المنادى ويوقظه، ويلفته إلى تلك الأهمية.

ثم من الذى ينادى؟ إنه رب الناس، الذى خلق السموات بغير عمد، وأنزل من السماء ماء، فأنبت به من كل زوج كريم، والذى أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، والذى خلقهم وهو قادر على بعثهم بعد موتهم والذى سخر لهم الشمس والقمر والبحر، وهذا أدعى وأوجب للتنبه، والاستعداد لتلقى ما سيأتى بعد النداء.

والمقصود به: الإقبال على موعظة. "والناس" اسم جمع، وتعريفه بـ "أل"، يجعله شاملاً لكل أفراد مسماه، لأن الجموع المعرفة باللام، تفيد العموم ما لم يكن فى الكلام ما يدل على أن المقصود بها التعريف العهدى. ولذلك شمل هذا النداء من وجد

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص ١٩٢.

وقت نزول الآية، ومن بعدهم إلى يوم القيامة، لأن التقوى وخشية الله لا يختص الأمر بهما على أهل عصر دون عصر آخر.

والآية مستأنفة بقصد الوعظ والإرشاد والتحذير، بعدما "ظهرت بما ذكر فى السورة دقائق الحكمة، وانتشرت فى الخافقين ألوية العظمة ونفوذ الكلمة،وأعربت ألسنة القدرة عن دلائل الوحدانية، فلم تدع شيئا من العجْمة، فظهر كالشمس أنه لابد من الصيرورة إلى يوم الفصل"(١).

وبعدما ذكر أن من الناس من كانت آيات الكتاب له هدى ورحمة، وأنهم صاروا على هدى، ومنهم من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها هزواً وأن منهم المقتصد ومنهم الجاحد.

فكأن المقام قد أصبح مهيأ لخطاب الفريقين بما ينفعهم.. وإذا كان الخطاب يشمل الفريقين – إن لم يكن خاصا بالمشركين – آمراً إياهم بالتقوى، فهذا إنما ينبئ عن رحمة الله – سبحانه – وكأنه يحب لعباده – كلهم – أن يكونوا مفلحين، يفوزون برضاه ويسعدون بدخول جنات النعيم لأنه وعظ وإرشاد لهم، بعدما ذكر من حالهم ما ينبئ عن رفضهم لآيات الكتاب الحكيم، والاستهزاء بها، وكفرهم بالله بعد ما قامت الدلائل على وحدانيته ووجوده، وبعدما كان منهم من جحود وغدر وكفران.

وكأن ذلك لم يكن حائلاً دون إعادة إرشادهم بما فيه مصلحتهم وصلاحهم فى الدنيا والآخرة.

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور جـ٦، ص٣٧

ثم إن النداء إنما يعنى إقبال المنادى على المنادى المخاطب، وهذا فيه تأنيس لهم، بعدما سبق من تهديد ووعيد على ما كان منهم، كما يفعل المربى الناصح حين يزجر ويتوعد من يربيه، ويوبخه، فإذا رأى فيه انكساراً طيب خاطرد بكلمة، ليريه أنه ما شدد عليه إلا استصلاحاً، وحبا لخيره وفوزد. وإذا كان النداء عاماً فإن المحسن يزداد بهذا الاستئناس إحساناً وينكف به المجرمون عن سوء صنيعهم، وينزلون عما هم عليه من مخالفة لله سبحانه. والمقصود من الأمر بالتقوى، أن يحذر الناس غضب الله سبحانه، وأن يحموا أنفسهم من عذابه وذلك بتوحيده،وعبادته على الوجه الأكمل، والاعتراف له بكل صفات الكمال، من إحاطة علم، وطلاقة قدرة ظهرت آثارهما فى هذا الكون الذى نحيا فيه ونعيش، فضلاً عما هو ثابت له من صفات أخرى، وتنزيهه – سبحانه – عن الشركاء فى الوجود والصفات والأفعال.

والتعبير بقوله: "ربكم" دون لفظ الجلالة أى بدل أن يقال مثلاً يأيها الناس اتقوا الله. لما فى معنى الرب ما يبعث الناس على الامتثال بالمأمور به، والانتهاء عما ينهى عنه. ويحثهم على الانزجار بالموعظة.

لأن الرب، هو المالك الذى يرب كل ما يملك، أى يدبر أمورد، ويرعى شئونه. فالرب: هو الذى يملك كل شئ ويستحقه، وهو السيد، والمدبر والمربى، والمنعم. فكأن فيها تزكير لكل الناس بمن خلقهم، ورزقهم، وسخر لهم ما فى الكون، مما يستوجب عليهم طاعته.

ثم تأمل تلك الإضافة، والتى لم تكن لتصلح مع لفظ الجلالة، وكيف توحى بتلك الصلة القائمة بين الرب وعباده، والتى تستلزم منهم أن يتقوه حق التقوى، وأن يعبدوه حق العبادة، وأن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، كما أنه خلقهم، وسخر لهم ما فى الكون، أرضه وسمائه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنه.

والمراد بخشية اليوم، خشية ما فيه من أحداث، لأن الزمن لا يخاف منه. فهو من إطلاق اسم الزمن على ما يقع فيه كما تقول: المكان المخوف، إذا كان فيه ما يخيف، فهو من باب المجاز المرسل.

وبلاغته تتجلى فى إظهار ذلك اليوم وقد أفعمت مدته بالأحداث، أو أن ما يخشى وقوعه فى هذا اليوم، يستغرق كل زمن اليوم،وهذا أدعى للحذر منه، والعمل له، والاستعداد لما يقع فيه بما يقى به الإنسان نفسه من طاعة وإخلاص.

ثم إن موجبات التقوى والخشية والداعى إليهما، قد سبقت الإشارة إليه، فقدرته – سبحانه – على خلق الناس وبعثهم، وتسخيره الشمس والقمر، ورفعه السماء بلا عمد إنما ينبئ عن قدرة مطلقة، ثم إحاطة علمه وشموله، وسمعه وبصره، وكونه لطيفاً خبيراً يجعله قادراً على كل مقدور، ومن كان بهذه الصفات – عز شأنه – فإنه قادر على إحصاء عمل العباد، وقادر على عقاب من يستحق العقاب.

فكأن النظر فيما سبقت الإشارة إليه فى السورة، من دلائل إلهيته ووحدانيته، وعلمه، من خلق، وتسخير، وبعث، إلى غير ذلك مما تحدثت عنه الآيات، يؤدى إلى أن من قدر على ذلك

فإن تقواه لازمه، وخشية عقابه واجبه. ثم إنها لما دلت على وحدانيته أوجبت تقواه، من جهة أن من "يعلم أن الأمر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير.

ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذى يحكم الله فيه بين العباد. وذلك لأن الملك إذا كان واحداً ويعهد منه أنه لا يعلم شيئاً ولا يستعرض عباده، لا يخاف منه مثل ما يخاف إذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف"[1].

وجملة: ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ فى محل نصب صفه اليوم، والعائد إلى الموصوف محذوف تقديره: "فيه" أى: لا يجزى فيه. "وذكر الوالد والولد هنا – لأنهما أشد محبة وحمية من غيرهما – كالأخ وأخيه والمرء وصاحبته، فيعلم بذكرهما أن غيرهما أولى بهذا النفى.

وابتدئ بذكر عدم إجزاء الوالد، عن الولد لشدة شفقته على ولده، بدليل أن الله ما وصى الوالد بابنه وإنما وصى الابن بوالده.

"ووجه اختيار هذه الطريقة فى إفادة عموم النفى – هنا– دون طريقة قوله تعالى: "واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئا" فى سورة البقرة، أن هذه الآية نزلت بمكة، وأهلها يومئذ خليط من مسلمين وكافرين، وربما كان الأب مسلماً والولد كافراً، وربما كان العكس، وقد يتوهم بعض الكافرين حين تداخلهم الظنون فى مصيرهم بعد الموت أنه إذا صدق وعيد القرآن إياهم

(١) التفسير الكبير جـ٢٥، ص١٤٣.

فإن من له أب مسلم أو ابن مسلم يدفع عنه هنالك بما يدل به على رب هذا الدين، وقد كان قاراً فى نفوس العرب التعويل على المولى والنصير تعويلاً على أن الحمية والأنفة تدفعهم إلى الدفاع عنهم فى ذلك الجمع وأن كانوا من قبل مختلفين فهم لضيق عطن أفهامهم، يقيسون الأمور على معتادهم.

وهذا أيضاً وجه الجمع بين نفى جزاء الوالد عن ولده،وبين نفى جزاء الولد عن والده، ليشمل الفريقين فى الحالتين، فلا يتوهم أن أحد الفريقين أرجى فى المقصود"[١].

ثم أو ثرت جملة "ولا مولود هو جاز عن والده شيئا" بطرق من التوكيد، حيث إنها نظمت جملة اسمية، ووسط فيها ضمير الفصل، وجعل النفى فيها منصبا إلى الجنس، لأن الله تعالى: "لما أكد الوصية بالآباء، وقرن وجوب شكرهم بوجوب شكره عز وجل، وأوجب على الولد أن يكفى والده ما يسوء بحسب نهاية إمكانه، قطع – سبحانه – هاهنا وهم الوالد فى أن يكون الولد فى القيامة – يجزيه حقه عليه، ويكفيه ما يلقاه من أهوال يوم القيامة، كما أوجب الله تعالى عليه فى الدنيا ذلك فى حقه، فلما كان جزاء الولد عن الوالد مظنة الوقوع لأنه – سبحانه – حض عليه فى الدنيا، كان جديراً بتأكيد النفى لإزالة هذا الوهم، ولا كذلك العكس"[٢].

ثم إنه عبر فى الأولى بقوله: "لا يجزى والد عن ولده" وكان حق السياق أن يقال فى الثانية: ولا ولد عن والده.، لكنه

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٩٣، ١٩٤.
(٢) روح المعانى م ١١ جـ٢١، ص١٠٥.

عدل عن الاسم الجامد إلى "مولود" وهو اسم مفعول، ليومئ إلى تلك الصلة القائمة بين المولود ووالده والتى توجب على المولود أن يفدى من ولده لما تجشمه وتحمل فى تربيته وتنشئته، ومع ذلك نفت الآية بطريق التوكيد أن يجزئ المولود عن والده فى هذا اليوم شيئاً.

ثم إنها تعنى " أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذى ولد منه، لم تقبل شفاعته، فضلاً عن أن يشفع لمن فوقه من أجداده، لأن الولد يقع على الولد، وولد الولد، بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك"(١).

وجملة: "**إن وعد الله حق**" علة للأمر بالتقوى والخشية ولذلك جاءت مفصولة عما قبلها كما يفصل الجواب عن السؤال. فكأن سائلا سأل ما علة الأمر بالتقوى والخشية؟ قيل: "**إن وعد الله حق**" والمراد بوعد الله هنا: البعث للحساب والجزاء. وجاء مؤكداً بإن، ووضع الظاهر موضع المضمر، مراعاة لانكسارهم، وعدل عن التعبير بالربوبية كما فى قوله: "**اتقوا ربكم**" للإشارة إلى أن الربوبية بما تعينه من رأفة ورحمة ورعاية إنما كانت عندما كانوا فى الدنيا، وأما فى الآخرة، فالوقت وقت حساب وجزاء، من الله إله العالمين. فمن كان رضيه إلها فهذا يوم سعده، ومن كان كفر به وحجد ربوبيته، فهذا يوم حسابه.

ولما كانت شبهة القوم فى إنكار البعث هى "مشاهدة الناس يموتون، ويخلفهم أجيال آخرون، ولم يرجع أحد ممن مات منهم، ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا

(١) الكشاف جـ٣، ص٤٨٩.

يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾[١] وقالوا أيضاً : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[٢]، فرع على هذا التأكيد إبطال شبهتهم بقوله﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾[٣] أى لا تغرنكم هذه الحياة الدنيا بأن تتوهموا الباطل حقاً والضر نفعاً"[٤].

وإسناد التغرير إلى الحياة الدنيا من المجاز العقلى، لأن الدنيا ليست فاعلة التغرير على الحقيقة وإنما هى ظرفه أو شبهته، وإنما الفاعل الحقيقى هو الشيطان أو من كانوا يضلونهم من البشر.

وتكرير الفعل من باب التأكيد، وذلك لعظم الخطب. وللإشارة إلى أن إلْفَهم بالدنيا وما فيها قد أعماهم عن حقيقتها التى لا يقف عليها عاقل إلا نفر منها، واتخذها مطية للآخرة.

و"الغرور" أى الكثير الغرور المبالغ فيه. وهو الشيطان الذى لا أحقر منه، لما جمع من البعد، والطرد، والاحتراق مع عدواته بما يزين لكم من أمرها، ويلهيكم به من تعظيم قدرها، وينسيكموه من كيدها وغدرها. وتعبها وشرها، وأذاها وضرها. فيوجب ذلك لكم الإعراض عن ذلك اليوم فلا تعدونه معاداً، ولا تتخذون له زاداً. لمن اقترن بغروره من حلم الله وإمهاله. قال سعيد بن جبير ﷺ: الغرة بالله أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة"[٥].

---

(١) الجاثية: ٢٤.
(٢) الأنعام: ٢٩.
(٣) لقمان : ٣٣.
(٤) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٩٥.
(٥) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور جـ٦، ص٣٨.

وكان من جملة غرورهم فى نفى البعث أنهم يجعلون عدم إعلام الناس بتعيين وقته أمارة على أنه غير واقع.

قال تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[1].

وقال:﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾[2] فلما جرى فى الآيات قبلها ذكر يوم القيامة أعقبت بأن وقت الساعة لا يعلمه إلا الله"[3].

ثم إنهم لجهلهم وعنادهم وغرورهم توهموا أن عدم إعلام الناس بتعيين وقت الساعة أمارة على أنها غير واقعة، وهو جهل ما بعده جهل، لأن عدم تعيين وقتها هو التعيين، وإخفاء وقتها إظهار له، من جهة أن الإنسان يتوقع أجله ونهايته فى أى وقت لذا فإنه يستعد لهذه الساعة. ولا يتراخى فى التزود لها.

وذلك على حد قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾[4] فإنه نص على الصلاة الوسطى مع أنها من جملة الصلوات وأخفاها فى الصلوات الخمس، بحيث إذا أراد

(١) يونس : ٤٨.
(٢) الشورى : ١٧.
(٣) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٩٦.
(٤) البقرة : ٢٣٨.

المصلى أن يحافظ عليها يكون سبيله المحافظة على الصلوات كلها.

وأما تعيينها فإنه يؤدى إلى إهمال البعض، والاهتمام بالبعض، فكان فى الإخفاء داع إلى الاجتهاد، وأدائها كاملة دون نقص أو فتور، وكذلك الحال هنا.

****

ولذلك يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

والساعة: القيامة. والساعة: اسم للوقت الذى تصعق فيه العباد، والوقت الذى يبعثون فيه، وتقوم فيه القيامة، وسميت كذلك لأنها تفجأ الناس فى ساعة فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأولى، التى ذكرها الله عز وجل فقال:﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[2].

وهى فى الأصل بمعنيين: أحدهما: أن تكون عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزءاً هى مجموع اليوم والليلة. والثانى: تكون عبارة عن جزء قليل من النهار أو الليل، يقال: جلست عندك ساعة من النهار، أى وقتاً قليلاً منه[3].

---

(١) لقمان: ٣٤.
(٢) يس: ٢٩.
(٣) اللسان مادة سوع.

وجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانيا لوقوعها جواباً عن سؤال مقدر فى نفوس الناس"[1]. كأن قائلاً يقول: متى هذا اليوم الذى ذكره من شأنه ما ذكر؟ فقيل: "إن الله عنده علم الساعة"[2].

وقد روى "أن رجلاً من محارب وهو الحرث بن عمرو بن حارثة أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أخبرنى عن الساعة متى قيامها؟ وإنى قد ألقيت حباتى فى الأرض وقد أبطأت عنا السماء فمتى تمطر؟، وأخبرنى عن امرأتى فقد اشتملت، ما فى بطنها؟ وأذكر أم أنثى؟ وإنى علمت ما عملت أمس فماذا أعمل غداً؟ وهذا مولدى قد عرفته، فأين أموت؟ فنزلت"[3].

وبذلك لو نظرنا إلى سبب النزول يكون الاستئناف بسبب وقوع الآية جواباً لسؤال محقق[4].

وقد أفاد التوكيد بحرف "إن" فى قوله: "إن الله عنده" تحقيق علم الله تعالى بوقت الساعة، وذلك يتضمن تأكيد وقوعها[5].

وتقديم لفظ الجلالة وبناء الخبر عليه، لأن اسم الله سبحانه أحق بالتقديم، ولأن تقديمه وبناء الخبر عليه، يفيد الحصر، إضافة إلى ما فيه من مزية تكرر الإسناد كما أن تقديم الظرف "عند" يفيد الاختصاص أيضاً، بل لفظ "عند" كذلك لأنها

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٩٦.
(٢) روح المعانى م١١، جـ٢١، ص١٠٦.
(٣) الكشاف جـ٣، ص٤٨١.
(٤) راجع روح المعانى جـ١١، جـ٢١، ص ١٠٦.
(٥) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٩٦.

تفيد حفظه بحيث لا يوصل إليه فيفيد الكلام من أوجه اختصاص علم وقت القيامة بالله عز وجل"[١].

ولو قال: مثلاً إن علم الساعة عند الله لما أفاد ذلك. يقول الطاهر: "وفى كلمة "عنده" إشارة إلى اختصاصه تعالى بذلك العلم لأن العندية شأنها الاستئثار"[٢].

"ولو قيل بدلاً منها: "له" مثلاً ما أفاد الحضور،ولو قيل: لديه لأوهم التعبير بلدى التى هى للحضور، أن ذلك كناية عن قربها جداً،وأوهم أن علمه تعالى يتفاوت تعلقه بالأشياء بخصوص أو عموم لأجل أن "لدى" أخص من عند، فكانت عند أوفق للمراد، فإنها أفادت التمكن من العلم[٣]، بوقت الساعة.

والتعبير بالساعة هنا، فيه إشارة إلى قلة الوقت الذى تقوم فيه القيامة. ولما كانت الساعة فى الأصل عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزءاً، أو جزء قليل من الليل أو النهار. فهذا يعنى أن استعمالها للتعبير عن يوم القيامة استعارة لاسم يوم القيامة، وهى توحى - إضافة إلى ما سبق من قلة وقتها - بسرعة الحساب فى هذا اليوم على الخالق سبحانه، أو بقلة زمنه بالنسبة لما بعده من الخلود[٤].

وقيل إن إطلاق الساعة على يوم القيامة لا استعارة فيه. وإنما هو علم بالغلبة على هذا اليوم.

---

(١) روح المعانى جـ١١، جـ٢١، ص١٠٦.
(٢) التحرير والتنوير جـ١، ص ١٩٦، ١٩٧.
(٣) نظم الدرر فى تناسب الآيات السور جـ٦، ص٣٨.
(٤) راجع روح المعانى م٤، جـ٧، ص ١٢٤.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ معطوف على الجملة الظرفية المبنية على الاسم الجليل، فيكون خبراً مبنيا على الاسم الجليل، مثل المعطوف عليه،والتقدير: وإن الله ينزل الغيث" فيفيد الاختصاص أيضاً كالجملة الأولى.

ولكن ليس المقصود من الخبر التأكيد على اختصاصه – سبحانه – بإنزل الغيث، لأن ذلك ليس مما ينكر، وإنما المقصود "تقييدات التنزيل الراجعة إلى العلم لا محض القدرة على التنزيل إذ لا شبهة فيه، فيرجع الاختصاص إلى العلم بزمانه ومكانه ومقداره"(١).

"ولكن نظمت الجملة بأسلوب الفعل المضارع "ينزل" ليحصل مع الدلالة على الاستئثار بالعلم به، الامتنان بذلك المعلوم الذى هو نعمه"(٢).

ثم إنك تلاحظ تلك المخالفة بين قوله: "إن الله عنده علم الساعة" وقوله: "وينزل العيث" والتى تشير باسناد التنزيل إلى الاسم الجليل إلى عظم شأنه، لما فيه من كثرة المنافع لأجناس الخلائق، وشيوع الاستدلال بما يترتب عليه من إحياء الأرض على صحة البعث المشار إليه بالساعة فى الكتاب العظيم(٣). قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ

(١) روح المعانى م١١، جـ٢١، ص١٠٦.
(٢) التحرير والتنوير جـ٢١، ص١٩٧.
(٣) روح المعانى م١١، جـ٢١، ١٠٦.

أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

وإيثار الفعل "ينزل" مضعفا، على الفعل "ينزل" مثلاً بدون تضعيف للإشارة إلى أن إنزال الغيث، من النعم العظيمة التى يقتضى حدوثها نظاماً معيناً فى الشمس، من جهة قربها أو بعدها عن الأرض أو حرارتها، ونظاماً معيناً فى خلق الماء فى الأرض، على مساحات واسعة، ونظاماً معينا فى صعود البخار من الماء – عند تعرضه لحرارة الشمس – إلى طبقات الجو العليا ليصادف برودة فيتحول إلى ماء،ونظاماً معينا فى حركة الرياح بحيث تسوقه إلى مكان معين، ثم إنزاله بمقدار معين، وهذا يعنى أن التعبير بفعل "التنزيل" يفيد – فضلاً عن الامتنان على العباد بهذه النعمة التى بها حياتهم – وبقائهم "اختصاصه سبحانه بالعلم بوقته، ومكانه، ومقداره، وغير ذلك من شئون، فإن كل من فعل شيئا حقيقة لم يعلم أحد وقت فعله قبل وقوعه إلا من قبله"[2].

ولذلك كانت دلالة الإنزال على العلم من باب دلالة المقدور المحكم المتقن على العلم الشامل بكل ما يتطلبه إنزال الغيث.

وفى إرداف الأخبار باستئثاره – سبحانه – بعلم الساعة. الإخبار باستئثاره بالعلم بالغيث، ما يؤكد أمر البعث والإحياء وقدرته – سبحانه – على ذلك.

---

(١) الروم: ٤٨،٤٩،٥٠.

(٢) التحرير والتنوير جـ٢١، ص:٩٧.

فنزول الغيث من السماء ليختلط بالتراب فينبت به الزرع مختلف الألوان، متعدد الطعوم، ثم هيجانه، ثم مشاهدتهم له بعد هذه الحالة من النضارة والرى، يصفر ليتحول إلى هشيم تذروه الرياح، كل ذلك يبعثهم على التفكير فى أمر البعث – الذى يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ من جهة أن حياة الإنسان على الأرض إنما تشبه حياة النبات من أوجه كثيرة، فهو يولد طفلاً ضعيفاً ثم ينمو ليشب، ثم يتقدم به العمر ليضعف بعد قوة ويدركه الفناء. فيتوجه الإنسان للاستدلال بقدرة الحق – سبحانه- على إخراج النبات من التراب، بالماء الذى ينزل من السماء على قدرته بعث الإنسان بعد موته.

ثم عطف عليه قوله سبحانه – ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أى ينفرد بعلم جميع أطواره، من نطفة وعلقه ومضغة ثم من كونه ذكراً أو أنثى، وإبان وضعه بالتدقيق"[1].

فضلاً عن حظه من "الطبائع، والأخلاق والشمائل، والأكساب والصنائع، والتقلبات فى مقدار العمر والزرق فى الأوقات والأماكن، وغير ذلك من الأحوال التى لا يحصيها إلا بارئ النسم،ومحى الرمم"[2].

والتعبير بالمضارع يفيد تجدد العلم بتبدل تلك الأطوار والأحوال.

ويشير شهاب الدين الألوسى إلى سر المخالفة بين قوله "إن الله عنده علم الساعة"وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ ، بقوله: وخولف بينهما ليدل فى الأول على مزيد الاختصاص، اعتناء بأمر الساعة

(١) التحرير والتنوير جـ٢١، ص ١٩٧.
(٢) نظم الدرر جـ٦، ص ٣٩.

ودلالة على شدة خفائها، وفى هذا على استمرار تجدد التعلقات بحسب تجدد المتعلقات مع الاختصاص"[١].

وأما قوله عزوجل: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

"فهو كناية عن إثبات العلم بما تكسب كل نفس والعلم بأى أرض تموت فيها كل نفس، إلى الله تعالى عن طريق نفى الدراية بهذين الأمرين عن كل نفس"[٢].

وهو أبلغ فى الدلالة على اختصاصه سبحانه بالعلم بهذين الأمرين، لأن النفى لما كان على سبيل الاستغراق، بسبب تنكير "نفس" فى سياق النفى، يلزم منه اختصاصه – سبحانه – به على سبيل الكناية على الوجه الأبلغ.

وعبر فى جانب نفى معرفة الناس بفعل الدارية لأنها علم فيه معالجة للإطلاع على المعلوم، ولذلك يقال: درى الصيد درياً، وادَّارد. وتدرَّاه: ختله، ودريت الظبى أى: اختلت له وختلته حتى أصيد. ودريت الشيء: عرفته، ودريت به: علمت به[٣].

فالدارية فيها معنى الحيلة،"لأن أصل درى:رمى الدرية، وهى الحلقة التى يقصد رميها الرماة، وما يتعلم عليه الطعن، والناقة التى يسببها الصائد ليأنس بها الصيد فيستتر من ورائها فيرميه.وفى كل حيلة،ولكونها علماً بضرب من الختل والحيلة لا تنسب إليه عزوجل"[٤]

والناس إذا كانوا بهذه المثابة فى قلة العلم بألصق الأشياء به. مع إتساع حيلهم فى معرفتها، ولا شئ أخص بالإنسان وألصق به من

---

(١) روح المعانى م١١، جـ٢١، ص١٠٦.
(٢) التحرير والتنوير جـ٢١، ص ١٩٨.
(٣)راجع لسان العرب مادة درى.
(٤) روح المعانى مـ١١، جـ٢١، ١٠٧.

كسبه الذى يرغب فيه، وفى مضاعفته، وعاقبته التى يحذرها ويرغب فى إبعادها عن نفسه لشدة حبه للحياة، فكيف يتطلعون إلى معرفة أعظم حوادث هذا العالم وهو حادث فنائه، واعتياضه بعالم الخلود.

ويقول الزمخشرى: وجعل العلم لله، والدارية للعبد لما فيه من معنى الختل والحيلة، والمعنى: أنها لا تعرف – وإن أعملت حيلها – ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها، ولا شئ أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتها، كان من معرفة ما عداهما أبعد"(١).

ثم تأمل بلاغة القرآن فى التعبير بقوله: "بأى أرض" دون أى وقت، فنفى دراية النفس بمكان موتها، مع قدرته على الانفكاك عن مكان معين، بخلاف الوقت فلا قدرة على الانفكاك عنه، فكان ذلك أدل دليل على جهل الإنسان بموضع موته، إذ لو علم به لبعد عنه ولم يقرب منه"(٢).

وربما أقامت النفس "بالأرض وضربت أوتادها وقالت: لا أبرحها وأقبر فيها، فترمى بها مرامى القدر حتى تموت فى مكان لم يخطر ببالها ولا حدثتها به ظنونها"(٣).

فسبحان من اقتضت حكمته إخفاء هذه الأمور عن عباده، لأنهم لو اطلعوا عليها لفات كثير من الحكم "**إن الله عليم خبير**" أى أن علمه غير مختص بهذه الأمور، بل هو عليم مطلقاً بكل شئ، وليس علمه علماً بظاهر الأشياء فحسب، بل "خبير" أى: أن علمه واصل إلى بواطن الأشياء. والله أعلم بالصواب(٤).

---

(١) الكشاف جـ٣، ص٤٩٠.
(٢) راجع نظم الدرر جـ٦،ص ٤٠.
(٣) الكشاف جـ٣، ص٤٨٩.
(٤) التفسير الكبير جـ٢٥، ص١٤٤.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة فى معالجة أسلوب السورة ونظمها. بالقدر الذى يسره الله لى، ومنّ به علىّ، بعد مراجعة أقوال العلماء والمفسرين، أعود بك إلى تحقيق الكلام فى مقاصد هذه السورة – مع أني ذكرت جانبا منها في المقدمة – وتنوع الأساليب فيها بحيث تطابقت مع المقاصد والمقامات والأحوال. فضلاً عن علاقة السورة بما قبلها وما بعدها من سور القرآن الكريم، بحيث تكتمل الصورة العامة لذلك أمام القارئ.

أولاً: مقاصد السورة:

افتتحت السورة بالإشارة المفيدة تعظيم وتشريف وعلو شأن الآيات، لأنها آيات الكتاب الحكيم، والتى تستلزم حكمته حكمة منزله فى أقواله وأفعاله وكماله فى صفاته.

فكانت البداية معربة عن هذا، ومثبتة لله الحكمة والكمال فى الصفات والأفعال، ومنزهة له عن كل نقص، بطريق شريف. ينبئ عن فخامة وروعة. من جهة أنه استدلال على وجود الشئ، وصفاته. من خلال الوقوف على آثاره، التى هى أقواله وأفعاله.

فلما كانت الآثار كاملة لا نقص فيها ولا قصور، محكمة لا خلل فيها ولا اضطراب، كانت دالة على كمال وحكمة قائلها وفاعلها.

وهو أسلوب يبث فى النفوس مهابة وروعة، وإجلالاً وتعظيماً لمن دلت على حكمته أقواله وعلى كماله أفعاله. لأن ثبوت ذلك لله –سبحانه– بطريق التفرد، يعني ثبوت ألوهيته. واستحقاقه العبودية الخالصة.

وإذا كانت الآيات بهذه الدرجة من الحكمة، فلا شك أنها تكون هادية وراحمة، بل هى عين الهداية والرحمة لمن تطهرت نفسه، وتطيبت لتكون أهلا لاستقبال تلك الفيوضات، وهذه الرحمات بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، واليقين بالآخرة.

وهذا الصنف من الخلق يكون باستقباله هداية الآيات ورحمتها على هدى من ربهم، وإذا كانوا كذلك كانوا هم المفلحين.

فكان فى ذلك إغراء لكل عاقل، بأن ينخرط فى سبيل المحسنين، التى هى سبيل الله، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. والإيمان باليوم الآخر، وذلك من بداية السورة وحتى نهاية الآية رقم ٥.

ثم فرع عليه التنويه بضلال فئة عزفت وأعرضت عن ذلك، هابطة بهذا الإعراض، إلى الصد عن سبيل الله،والاستهزاء بها، استكباراً وإعراضاً عن الحق مع وضوحه، فكان جزاؤهم من جنس ما سلكوا، وما قدموا استهزاء، وسخرية، مع العذاب الأليم. قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [1] وهو بالطبع مغاير لثواب الفريق الأول، فهو صاحب جنات النعيم، وذلك من الآية رقم ٦ وحتى نهاية الآية رقم ٩.

وهذا يعنى أن مطلع السورة يتضمن الآتى:

١- التنبيه على حكمة الله – سبحانه – وكماله فى صفاته، وأفعاله، عن طريق الإشارة إلى آيات كتابه المحكم، وهدايتها ورحمتها. والتى تستلزم وحدانيته.

(١) لقمان: ٧.

٢- ذكر حال الناس وموقفهم من ذلك التنبيه، وتلك الإشارة. وانقسامهم إلى فريقين، وذكر ما يستحقه كل فريق.

٣- التنبيه على البعث من خلال التنويه بشأن المحسنين الذين امتازوا عن غيرهم، بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، واليقين باليوم الآخر والإشارة إلى ما أعده الله للفريق الثانى من عذاب فى هذا اليوم.

٤- التأكيد على صدق الرسول ﷺ فيما يدعو إليه، لأنه إذا ثبتت حكمة الله المفادة من حكمة الآيات المنزلة على رسول الله ﷺ، وثبتت صحة ما أخبر الله به من وجود ذلك اليوم الذى يبعث فيه الناس للحساب ثبت بطريق اللزوم صدق رسول الله فى كل ما يدعو إليه من توحيد الله سبحانه وتعالى، ونبذ عبادة من سواه مع ما يتطلبه ذلك من طاعة لله والرسول فى كل ما أمر أو نهى.

ولما كانت حكمة الله سبحانه وتعالى يستدل عليها بإحكامه أقواله وأفعاله، ذكر جانبا من هذه الأفعال، وهى خلق السموات مرفوعة بلا عمد، وإلقاء الرواسي فى الأرض، ونشر الدواب فيها، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الزروع والثمار المختلفة، وهى أفعال تامة كاملة، بدليل أنك لا ترى فطوراً فى السموات، ولا تشعر باضطراب فى الأرض، ولا تجد ملحاً فى الماء النازل من السماء.

قال تعالى مشيراً إلى كمال تلك الأفعال وكيف أنها تنبئ عن حكمة فاعلها:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[1].

وقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَٰتًا ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾[2].

وقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[3].

وقال:﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾[4].

فدل بإحكام أفعاله على حكمته،وكماله المستلزم وحدانيته، وتفرده بالإلهية، ولذلك يقول: "هذا خلق الله"[5] مشيراً إلى غاية الكمال، ونهاية الحكمة فى الأفعال، نافيا أن يكون لغيره نصيب منها فى أبلغ أسلوب بقوله: "فأروني ماذا خلق الذين من دونه"[6].

يقول الإمام البقاعى: عن مقصود سورة لقمان "مقصودها إثبات الحكمة للكتاب اللازم منه حكمة منزله -سبحانه- فى أقواله وأفعاله"[7].وذلك من الآية رقم ١٠وحتى نهاية الآية رقم ١١.

---

(١) الملك: ٣، ٤.
(٢) المرسلات: ٢٥، ٢٦، ٢٧.
(٣) النبأ: ٦، ٧.
(٤) النبأ: ١٤، ١٥، ١٦.
(٥) لقمان: ١١.
(٦) لقمان: ١١.
(٧) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور جـ٦، ص٣.

ثم عاد ليخبر عن بعض من آتاهم الله الحكمة فانتفعوا بها، فى حياتهم، فوضعوا الأشياء فى مواضعها، واعترفوا بوحدانية الله، وأقروا بربوبيته، وتدرجوا من الحض على عدم الإشراك به -سبحانه- إلى الكمال في العبودية لله -سبحانه وتعالى- وذلك من الآية رقم ١٢ وحتى نهاية الآية رقم ١٩.

ثم عاد ليحض على التدبر فى أفعاله المحكمة، ليصل الإنسان من خلال ذلك التدبر وتلك الرؤية إلى حكمته -سبحانه- وتفرده بكل كمال، وتنزهه عن كل نقص، بما يجعله أهلا للتفرد بالعبودية. بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (١) وأن هذه الرؤية مع قدر قليل من التأمل تصل بالإنسان إلى الاعتراف بحكمة الخالق سبحانه وتعالى ووحدانية.

ومع ذلك وجد من يجادل فى الله، ويرفض إتباع ما أنزله على رسول ﷺ، مؤثراً إتباع ما وجد عليه آباءه، مع ما كانوا فيه من ضلال مبين.

ووجد من استمسك بالعروة الوثقى بإسلام وجهه لله. وهو محسن.

ثم فرع على ذلك نهى رسول الله ﷺ، عن الحزن على هذا الفريق الذى رفض إتباع الآيات، والإقرار بوحدانية الله تعالى، مشيراً إلى أن الكل تحت سلطانه، وداخل فى ملكه لأنه هو خالق السموات والأرض بما فيهما، ومن فيهما، منبها على أن مرجعهم إلى الله يوم القيامة.

---

(١) لقمان: ٢٠.

وقد استدل على ذلك بما أثبت لنفسه من القدرة على الإبداع من غير انتهاء فى قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

ثم ذكر بعض آثار هذه القدرة، متمثلة فى قدرته على خلق الناس وبعثهم، ومدى سهولة ذلك حتى كأنه بالنسبة له كخلق أو بعث نفس واحدة.

ثم عاد مرة ثانية ليؤكد على قدرته على البعث من خلال عرض قدرته على فعل ما هو أعجب وأعظم من أمر البعث، وهو إيلاج الليل فى النهار، وإيلاج النهار فى الليل.

قال تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٢).

ثم تخلص من هذا الإثبات إلى وحدانيته، وأنه هو الحق وأن ما عداه باطل، وأنه هو العلى الكبير، وأن هذه القدرة المطلقة على الخلق والبعث، وإيلاج الليل فى النهار، وإيلاج النهار فى الليل، بما ينبئ عن حكمة الله سبحانه، إنما هو كالمسبَّب عن وحدانيته وتفرده بكل صفات الكمال.

(١) لقمان: ٢٧.
(٢) لقمان: ٢٨، ٢٩.

ثم استدل عليها بتوجيه الخلق إلى النظر فى البحر وكيف تجرى فيه الفلك بنعمت الله، مفرعاً عليه ما يمن به سبحانه على عباده، حال كونهم فى البحر، وقد غشيهم الموج من إنجاءهم إلى البر، مبينا أن الناس منقسمون إزاء هذه النعم وتلك الآيات إلى فريقين، مقتصد وجاحد.

ثم يتوجه سبحانه إلى الفريقين بالوعظ والإرشاد والتحذير بعدما ذكر فى السورة من دقائق الحكمة – آمراً إياهم بما ينبغى أن يكونوا عليه من تقوى الله سبحانه، والخوف من يوم لا يجزى فيه والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، مؤكدا على أن وعده حق، ومحذراً من الاغترار بالدنيا. وهو ما ينبئ عن رحمته وحكمته، وهكذا شأن الحكيم لا يثنيه إعراض أو حجود عن الإرشاد والوعظ والتحذير.

ثم ضمنت السورة بما ينبئ عن حكمة الله سبحانه التى اقتضت استئثاره بعلم الساعة، وتنزيل الغيث، وعلم ما فى الأرحام ونفى دراية الناس بما يكسبون فى غد، أو بمكان موتهم نفياً يستلزم اختصاصه سبحانه بعلم ذلك بطريق أبلغ، فسبحان من اقتضت حكمته إخفاء هذه الأمور عن عباده، لأنهم لو اطلعوا عليها لفات كثير من الحكم.

وأنت ترى بعد هذه الرحلة مع مسرى المعنى داخل السورة علاقة بين ما افتتحت به السورة من إشارة إلى حكمة الكتاب المستلزمة حكمة قائله سبحانه، ما اختتمت به من إشارة إلى حكمته سبحانه فى استئثاره بعلم هذه الأمور، لما فى ذلك من النفع العظيم للناس، فكانت حكمته عائدة بالنفع إلى عباده فى

بداية السورة، متمثلاً فى إنزاله الآيات، وعائدة بالنفع إليهم فى نهايتها ممثلاً فى الاحتفاظ لنفسه بعلم أشياء.

ولا أزعم أنى بذلك أن قد وفيت هذه النقطة حقها، لأن "حركة المعنى داخل السور، ومراقبة نموه وامتداده، وذهابه، وارتداده باب من أخفى أبواب البلاغة وأغمضها"(١).

فإن كنت قد أصبت شيئا فبفضل من الله، وإلا، فهى محاولة لتمهيد الطريق لسالك يصيب، أو يقارب الصواب. وحسبى أنى قد أعملت ذهنى وعقلى بعد معالجة لآيات السورة.

ثانيا: علاقة مطلع السورة بمقاصدها:

من خلال التأمل فى مطلع السورة، وما ورد فى ثناياها من معان ومقاصد اشتملت عليها، تجدها قد ارتبطت بالمطلع برباط محكم، فكان المطلع بما فيه من إشارة إلى حكمة الحق سبحانه – عن طريق الإشارة إلى أقواله المحكمة، التى هى آيات الكتاب الحكيم، وأفعاله المحكمة كخلق السموات ورفعها بلا عمد، وإلقاء الرواسى فى الأرض كيلا تميد وتضطرب – كالأصل الذى تتفرع منه أغصان شتى.

وتأمل أنت قول الحق: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾(٢). وكيف تشير إلى حكمة منزل الكتاب، وإذا ثبتت حكمته من جهة كلامه، استلزم ذلك أن يكون حكيما فى أفعاله. بما يعنى تنزهه عن كل نقص فى قوله أو فعله، فيستلزم ذلك

(١) من أسرار التعبير القرآنى ص ٢٦.
(٢) لقمان ١، ٢.

وحدانيته. وكل معنى فى السورة يمد بخيط إلى ذلك الأصل، ويرتبط به.

فالآيات من ٣ وحتى ٩ تبين أثر آيات الكتاب الحكيم على من هيأ نفسه لاستقبالها، وأنها هداية ورحمة، ومع ذلك نجد من ينأى بنفسه عنها مستكبراً كأن لم يسمعها، ثم تكشف عن جزاء كل فريق منهم، وذلك فى إشارة إلى البعث.

والآيات من ١٠ وحتى ١١ تشير إلى حكمة الحق سبحانه فى أفعاله، التى هى خلق السموات مرفوعة بلا عمد، وإلقاء الرواسى فى الأرض لئلا تميد وتضطرب، وأن أحداً غيره لا يستطيع أن يخلق شيئاً من هذا، وذلك فى إشارة إلى تفرده بهذه القدرة على الخلق المحكم.

والآيات من ١٢ وحتى ١٩ أوردها الحق كأنموذج ومثال لمن اهتدى بحكمة الله سبحانه، وهو "لقمان" فظهرت آثارها فى أقواله لابنه وأفعاله التى هى إخلاص العبادة والشكر لله سبحانه.

والآيات من ٢١ وحتى ٢٥ فيها توجيه للناس أن يتأملوا فى خلق السموات والأرض، وتسخير الله ما فيهما للإنسان، وبيان موقف الناس من هذه الدعوة، وإنقسامهم إلى فريقين، فريق أسلم وجهه لله، وفريق كفر به.

ثم ترى هذه المعانى تلتقى كلها عند قوله الحق: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

(١) لقمان : ٢٦.

معلنة ملكية الله سبحانه على سبيل القصر، لكل ما فى السموات والأرض ومن فيهما، وأن أحداً لا يخرج عن سلطانه، سواء من آمن أو كفر، مشيراً إلى أن ملكه غير محدود بحدود السموات والأرض، وإنما يتجاوزها إلى ما لا يمكن حصره، ولا الإحاطة به عن طريق إثبات قدرته على الإبداع من غير انتهاء، مستدلا على ذلك بقدرته على الخلق والبعث وإيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل، وتسخير الشمس والقمر، وذلك فى الآيات ٢٧، ٢٨،٢٩.

ثم يشير إلى أن هذه القدرة المطلقة، والأفعال والأقوال المحكمة، إنما كانت لتفرده ووحدانيته، مستدلاً عليها بما ورد فى الآيات ٣١،٣٢ من تسخيره البحر لتجرى الفلك فيه بنعمته، وقدرته على إنجاء الناس إذا غشيهم الموج المرتفع، ومع ذلك تجدهم قد انقسموا إلى مقتصد، وجاحد.

ثم يتوجه إلى الجميع أى من أمن بالآيات التى هى كلام الله، ومن كفر بها وضل عنها، ومن آمن بالله لرؤيته حكمته وقدرته فى أفعاله، ومن جحد، بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾، محذراً إياهم من يوم لا يجزى فيه والد عن ولده، ولا مولوده هو جاز عن والده شيئاً، وذلك فى إشارة صريحة إلى البعث.

وكانت خاتمة السورة تمد بخيط لترتبط مع مطلعها، من جهة أن حكمة الحق سبحانه تقتضى أن ينزل شيئا وهو آيات الكتاب الحكيم ويحتفظ عنده بعلم أشياء.

ثالثا: علاقة المطلع بالخاتمة:

علاقة مطالع سور القرآن الكريم بخواتيمها باب جليل من أبواب أسرار القرآن الكريم وبلاغته.

يقول الزركشى: "ومن أسراره مناسبة فواتح السور وخواتمها"، وهو يوجه القارئ إلى التأمل فى سورة القصص. وكيف أنها بدئت بقصة موسى -عليه السلام- ونصرته، وقوله:﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[1]. وخروجه من وطنه ونصرتُه وأسعافه بالمكالمة، وختمها بأمر النبى ﷺ بألا يكون ظهيراً للكافرين، وتسليته بخروجه من مكة، والوعد بعودته إليها بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[2]،[3].

كما أشار الزمخشرى إلى العلاقة والمناسبة بين افتتاح سورة المؤمنين بقول الحق:﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾[4]. وبين ما ورد فى خاتمتها، وهو قوله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[5].

بقوله: فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة"[6]. فى إشارة موجزة إلى أن الحديث عن فلاح المؤمنين، يناسبه الحديث عن

---

(١) القصص : ١٧.
(٢) القصص : ٨٥.
(٣) البرهان فى علم القرآن للزركشى، جـ١، ص: ١٨٥.
(٤) المؤمنون: ٢.
(٥) المؤمنون : ١١٧.
(٦) الكشاف جـ ٣، ص٢٠١.

خيبة أمل الكافرين، وعدم فلاحهم، وما ينبئ به ذلك عما أعده الله لذلك الفريق من نعيم، ولهذا من عذاب مقيم.

وفى السورة التى بين أيدينا، نجد أنها افتتحت بالإشارة إلى حكمة الكتاب، المستلزمة حكمة منزله فى الأقوال التى منها القرآن، والأفعال التى منها خلق السموات والأرض، وإنزال الماء من السماء، إلى آخر ما ورد فى السورة واختتمت بقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1]. فكان من الحكمة أيضاً، فكما اقتضت حكمته إنزال الكتاب متضمناً معارف وأخبار، اقتضت كذلك الإمساك بعلم أشياء، لما فى ذلك من صلاح الناس واستقامة أمورهم فى الدنيا.

والله تعالى أعلم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) لقمان: ٣٤.

المصادر المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي - ط: بيروت.

٢- أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها فى القرآن الكريم د/محمود موسى حمدان ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبى السعود، ط: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان

٤- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ،دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم، د/ محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة.

٥- ١٤٠٥هـ -١٩٨٤ دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

٦- إعراب القرآن الكريم وبيانه،تأليف الأستاذ/محيىالدين الدرويش، ط: اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق بيروت.

٧- البرهان فى علوم القرآن للزركشى، ط بيروت.

٨- التحرير والتنوير، للشيخ/ محمد الطاهر ابن عاشور.

٩- التفسير البلاغى للاستفهام، د/عبد العظيم المطعنى، مكتبة وهبة القاهرة.

١٠- التفسير الكبير "مفاتيح الغيب" للرازى، ط: دار الكتب العلمية بيروت.

١١- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى.

١٢- حاشية الانتصاف على الكشاف، للإمام أحمد بن المنير الإسكندرية.

١٣- خصائص التراكيب د/ محمد محمد أبوموسى مكتبة وهبة القاهرة.

١٤- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافى، ط بيروت.

١٥- دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجرجانى.

١٦- روح المعانى للألوسى ط دار الكتب العلمية بيروت.

١٧- شرح شافية ابن الحاجب للرضى، تحقيق الأساتذة/محمد نور الحسن – محمد الزفزاف – محمد محى الدين عبد الحميد.
١٨- الطراز للعلوى، ط: بيروت.
١٩- عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح للسبكى.
٢٠- فى البلاغة القرآنية – أسرار الفصل والوصل د/ صباح عبيد دراز مكتبة وهبة.
٢١- كتاب الكبائر للذهبى، ط: بيروت.
٢٢- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى، ط: بيروت.
٢٣- لسان العرب لابن منظور.
٢٤- المحرر الوجيز لابن عطية، ت: عبدالسلام عبدالشافى محمد ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
٢٥- المطول لسعد الدين التفتازانى.
٢٦- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، ت: محمد محى الدين عبد الحميد.
٢٧- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، ط: المكتبة التوفيقية. القاهرة.
٢٨- من أسرار التعبير القرآنى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب د/محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة.
٢٩- النحو الوافى لعباس حسن.
٣٠- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعى ط دار الكتب العلمية بيروت.
٣١- الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز، لأبى عبد الله الحسين ابن محمد الدامغانى، ت: محمد حسن أبو العزم، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.